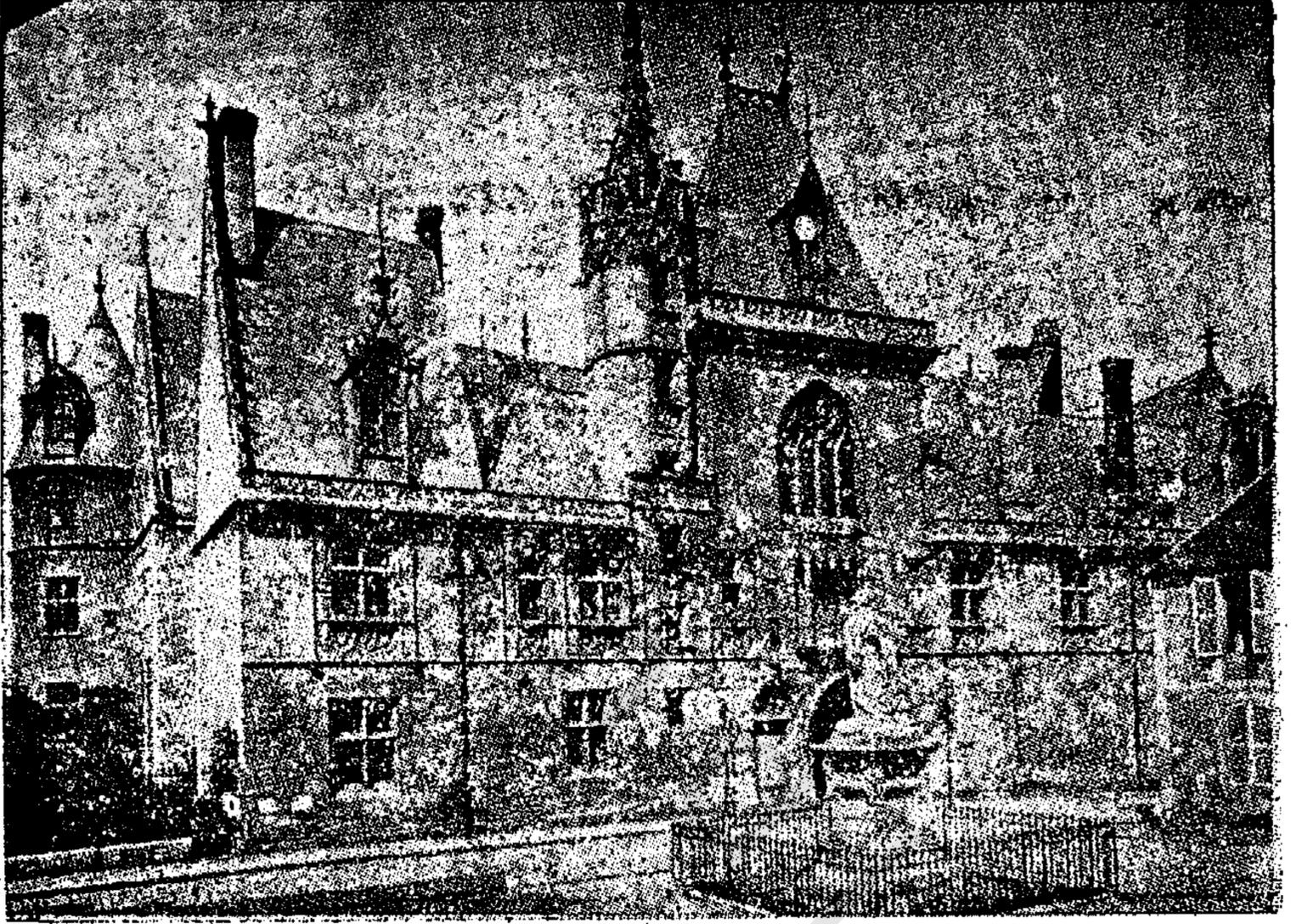


# الكتاب الأول

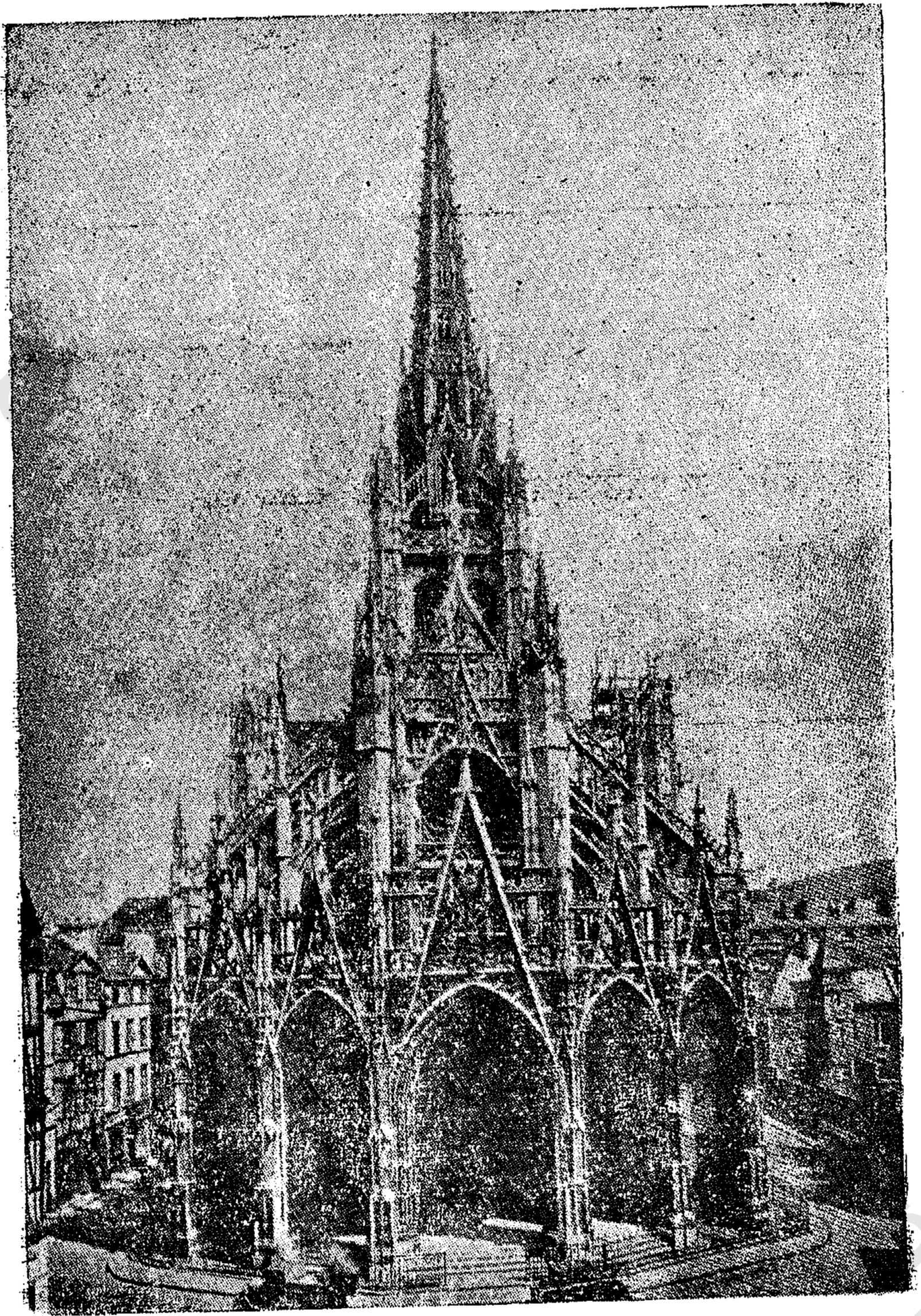
من ويكف إلى لوثر

١٣٠٠ - ١٥١٧

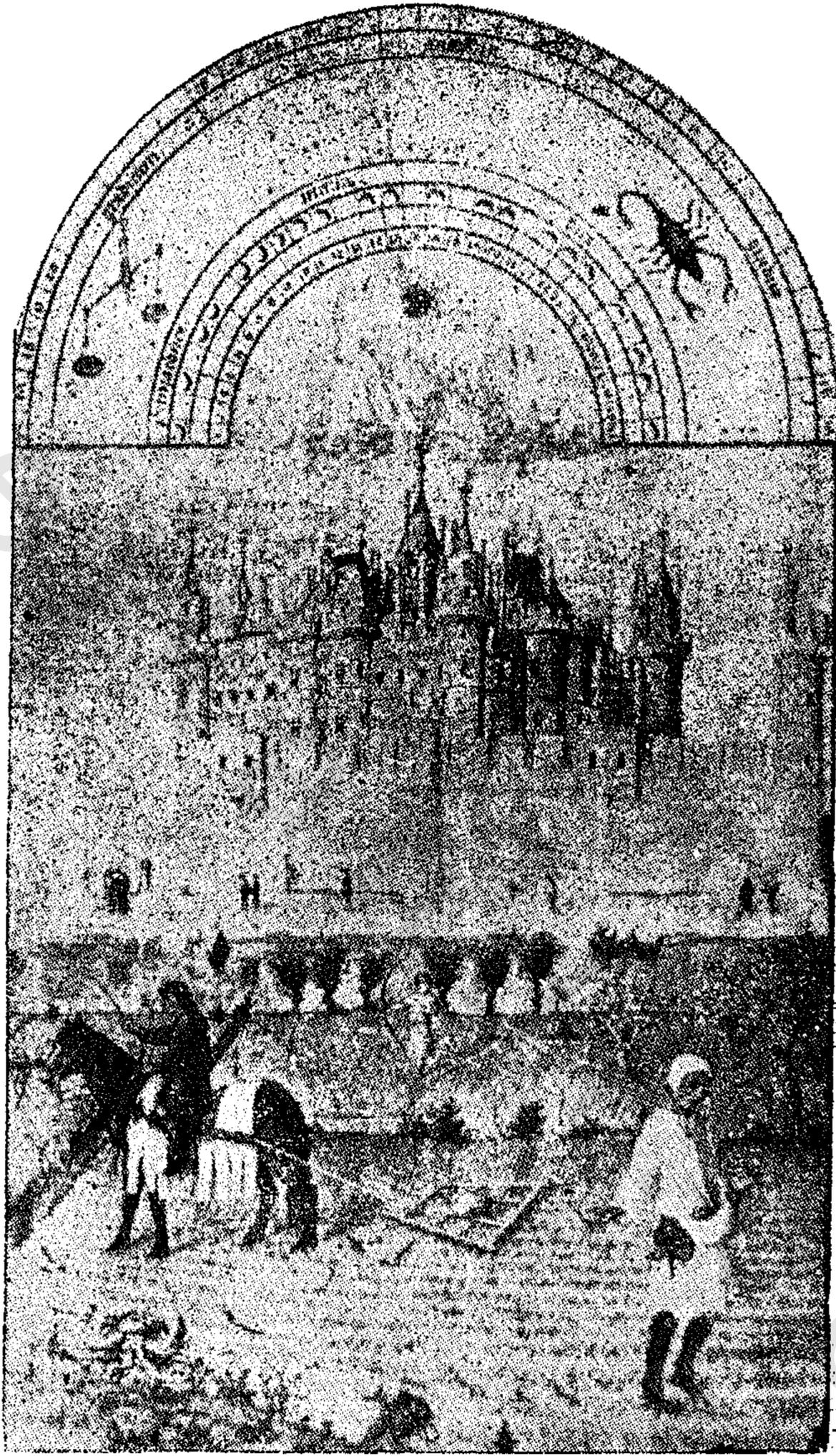
oboeikenda.com



( شکل ۱ )  
بوت جاک کیر - بورج  
( ص ۱۴۶ )



( شكل ٢ )  
كنيسة سان ماركلو - روين  
( ص ١٤٦ )



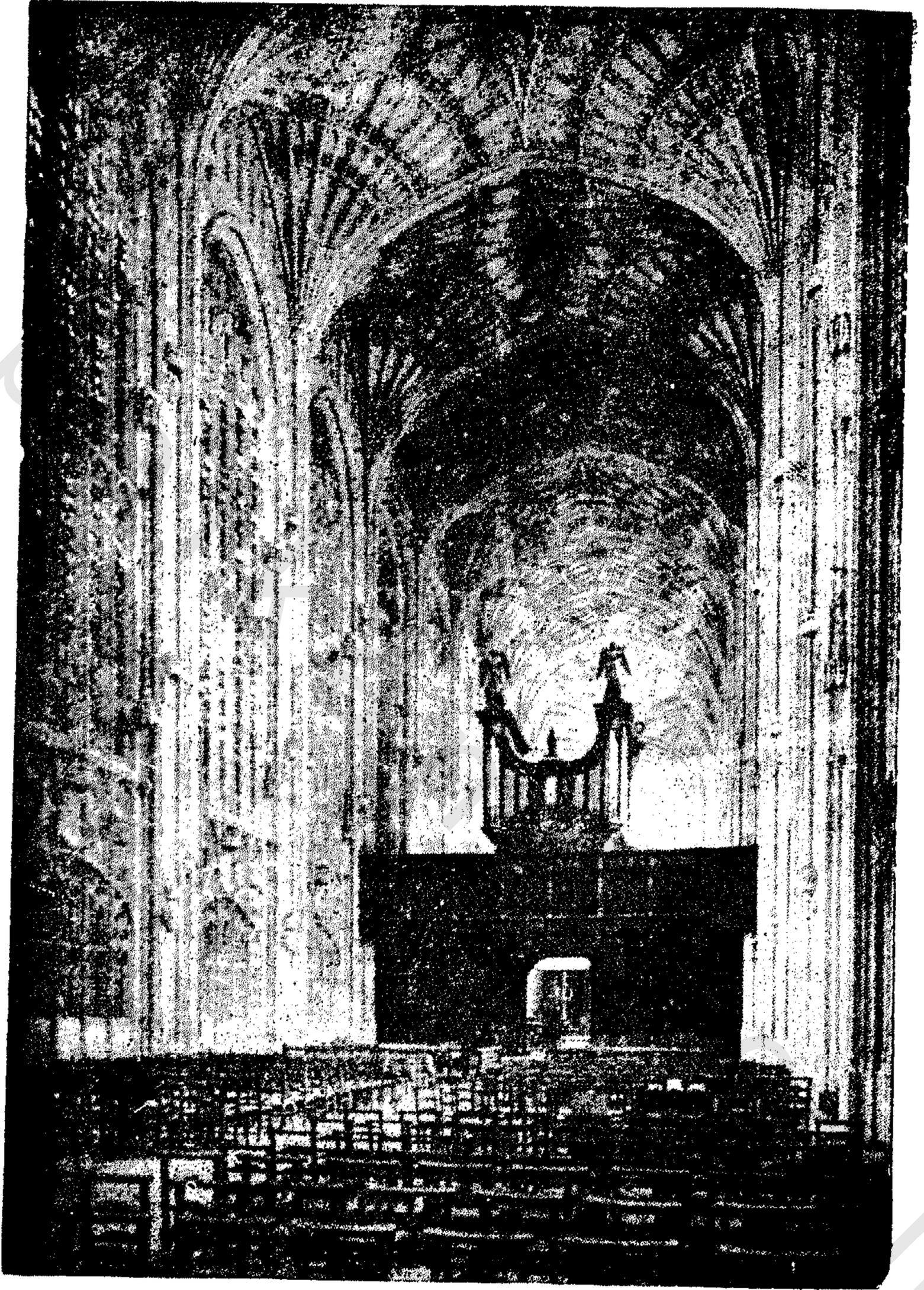
( شكل ٣ )

بول دي ييمبورج : شهر أكتوبر - منمنمة من « الساعات الحصينة  
لدوق دي بري » - متحف كورنديه . شانتييل

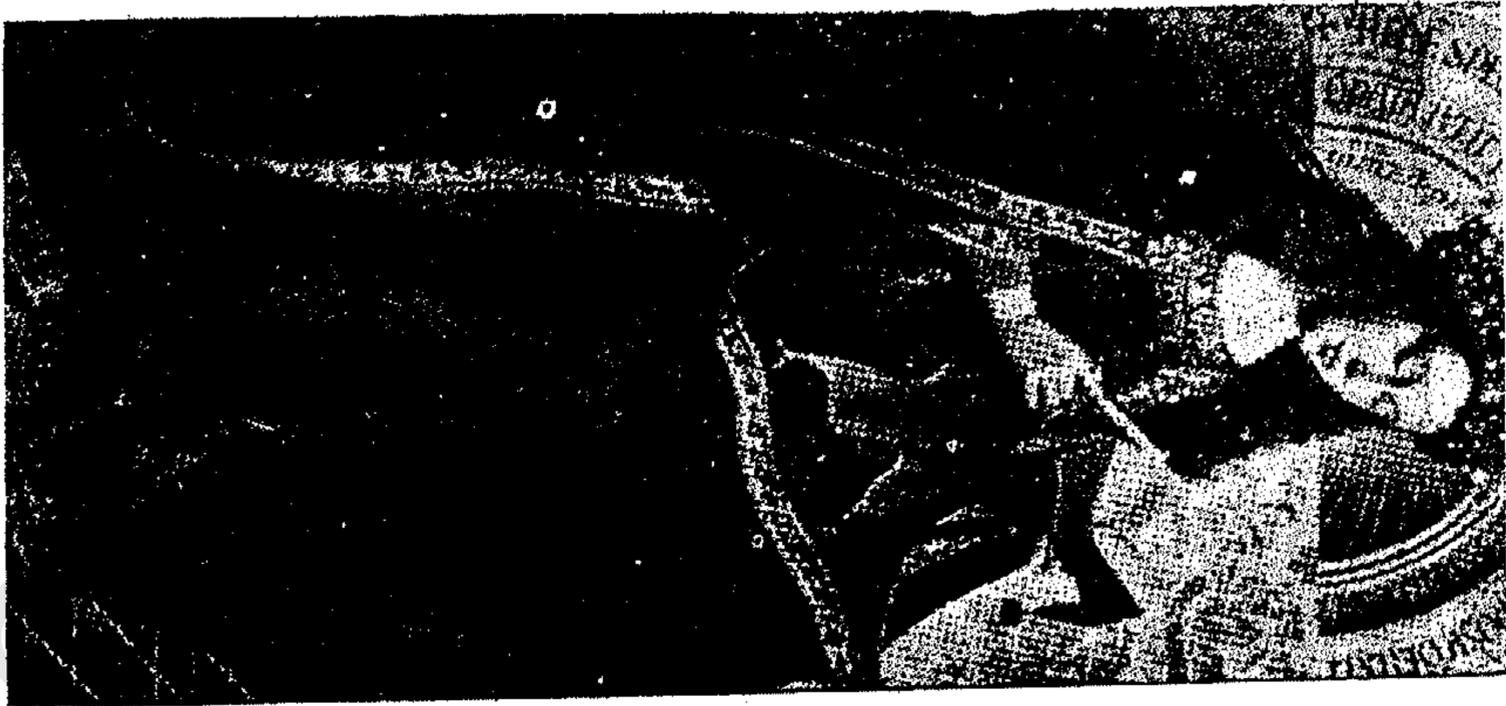
( ص ١٥٠ )



( شكل ٤ )  
ميشل كولومب  
سان جورج والتمنين  
متحف اللوفر - باريس  
( ص ١٨٠ )



( شكل • )  
كنيسة كنجز كوليج ( من الداخل ) كامبريدج  
( ص ٢١١ )



( شكل ٧ )  
ميوبرت و جان فان أليك  
المذراه . تفصيل من « عبادة الحمل »  
كنيسة سان بافون - غنيت



( شكل ٦ )  
كلاوس سلوتر ( موسى )  
متحف ديجون



( شكل ٨ )

هيوبيرت وجان فان أليك - « عبادة الحمل »

كنيسة سان بافون - غنت

( ص ٢٣٥ )



( شكل ٩ )

روجيه كان در فيدان

صورة شخصية لسيدة

( متحف الفن القوي واشتباطون )

من ( مجموعة ميلون )

( ص ٢٢٨ )

## إلى القارىء

من حق القارئ المرتقب أن ننبهه إلى أن لفظ الإصلاح الديني ليس عنواناً صادقاً كل الصدق لهذا المجلد ولعل العنوان الأدق منه هو « تاريخ الحضارة الأوروبية خارج إيطاليا من عام ١٣٠٠ إلى عام ١٥٦٤ أو حواليها بما في ذلك تاريخ الدين في إيطاليا مع نظرة عارضة إلى الحضارتين الإسلامية واليهودية في أوروبا وأفريقية وآسية الغربية ». وقد يسأل القارئ عن سبب هذا التحديد المتعرج لمنهج البحث فنقول : إن المجلد الرابع المسمى عصر الإيمان من مجلدات هذه السلسلة « قصة الحضارة » قد وقف بتاريخ أوروبا عند عام ١٣٠٠ ، وإن المجلد الخامس « عصر النهضة » قد اقتصر على البحث في أحوال إيطاليا بين عامي ١٣٠٤ و ١٥٧٦ مرجئاً أضداء الإصلاح الديني في بلاد إيطاليا . ومن أجل هذا يجب أن يبدأ هذا المجلد السادس بعام ١٣٠٠ . وهو يفترض أن القارئ سيجد مسلاة في أن لوثر لا يظهر على مسرح الحوادث إلا بعد أن تنتهي من ثلث هذه القصة . ولكن علينا أن نتفق منذ البداية على أن الإصلاح الديني قد بدأ في الواقع بجون ويكلف ولويس البافاري من رجال القرن الرابع عشر ثم واصل سيره إلى جون هونس في القرن الخامس عشر حتى انتهى في القرن السادس عشر بالرجة العنيفة التي أحدثها راهب وتنبرج . وفي وسع من لا يهتم من القراء بغير الثورة الدينية أن يغفل قراءة الفصول الثالث والرابع والخامس والسادس . ثم الفصلين التاسع والعاشر دون أن يخسر بذلك خسارة لا تعوض .

فالإصلاح الديني إذن هو الموضوع الرئيسي : وإن لم يكن الموضوع الوحيد في هذا المجلد . وسنبدأه بالتحدث عن الدين بوجه عام ، وبما له من أثر في نفس الفرد وفي الجماعة ، ثم نتحدث بعدئذ عن أحوال الكنيسة الكاثوليكية في القرنين السابقين على أيام لوثر . ثم نلقى نظرة على أحوال

إنجلترا بين عامي ١٣٧٦ و ١٣٨٢ وأحوال ألمانيا بين ١٣٢٠ و ١٣٤٧ ،  
وبوهيميا بين ١٤٠٢ و ١٤٨٥ ونفصل القول في مبادئ إصلاحات لوثر  
الدينية وما قام على أثر ذلك من نزاع : وسنلاحظ ونحن نمضي قدماً في البحث  
كيف كانت الثورة الاجتماعية وما تتضمنه من آمال شعبية تسييران مع الثورة  
الدينية جنباً إلى جنب : وسنردد في غير قوة صدى الفصل الذي ورد  
في كتاب جين Gippon عن سقوط القسطنطينية ، ونذكر كيف مكن  
زحف الأتراك إلى أبواب فينا رجلاً بمفرده من أن يتحدى البابا والإمبراطور  
في وقت واحد . وسننظر بروح العطف إلى ما بذله أرزمس من جهود لحمل  
الكنيسة على أن تصلح نفسها في سلام وسندرس أحوال ألمانيا قبيل أيام  
لوثر لعلنا نستطيع بهذا الدرس أن نفهم أن مجيئه حين جاء كان أمراً  
محتوماً لامندوحة عنه . وسنسلط الأضواء في الكتاب الثاني على الإصلاح  
الديني نفسه وعلى رجاله لوثر وملنكثون في ألمانيا ، وزفنجلي وكلفن  
في سويسرا ، وهنري الثامن في إنجلترا ، ونكس في اسكتلندا ، وجستافس  
فازا في السويد ، ثم نلقى نظرة عابرة على النزاع الطويل الذي شب بين  
فرانسيس الأول وشارل الخامس ، لكننا سنؤجل غير هذا من أحوال الحياة  
الأوروبية في هذا النصف قرن المضطرب المليء بالأحداث ( ١٥١٧ -  
١٥٦٤ ) ، وذلك لكي نترك المجال للمسرحية الدينية لتكشف لنا دون  
أن يحدث فيها شيء من الاضطراب والارتباك بسبب إرجاء الحديث عنها  
من حين إلى حين . أما الكتاب الثالث من هذا المجلد فسيطل على « الغرباء  
الواقفين بالباب » . على روسيا وأمراء موسكو والكنيسة الأرثوذكسية ،  
وعلى الإسلام وما جاء به من عقيدة ، وثقافة ، وقوة يتحدى بها  
غيره من الأديان ، وكفاح اليهودية للعثور على مسيحين في العالم  
المسيحي . وسيدهب الكتاب الرابع إلى ما وراء أحداث المسرحية ليدرس  
شرائع أوروبا وأحوالها الاقتصادية ، وأخلاقها ، وعاداتها ، وفنها ،

وموسيقاها ، وآدابها ، وعلومها ، وفلسفتها في أيام لوثر . وسنحاول في الكتاب الخامس أن نضع أنفسنا في موضع الكنيسة فننظر إلى الإصلاح الديني كما تنظر إليه - هي - وقد جاق بها الخطر ، فلا نجد مناصباً من الإعجاب بالطريقة التي اجتازت بها العاصفة المحيطة بها في جرأة وهدوء . ثم نختم الكتاب بخاتمة موجزة نحاول فيها أن ننظر إلى النهضة والإصلاح الديني ، والمذهب الكاثوليكي ، والاستنارة نظرة شاملة في ضوء التاريخ الحديث والأفكار الحديثة .

ذلك موضوع ممتع رائع ولكنه موضوع شائك ، لأننا لا نكاد نكتب فيه كلمة لا تثير الجدل أو الامتعاض . ولقد حاولت أن أقف موقف الكاتب غير المتحيز ، وإن كنت لا أنكر أن ماضي الشخص يلون آراءه على الدوام ، وإن لا شيء يضايق الإنسان أكثر من عدم تحيزه . ومن واجبي أن أنبه القارئ من بداية الأمر أنني قد نشأت نشأة الكاثوليكي المتحمس لمذهبه ، وأنى لا أزال أحتفظ بذكريات طيبة خليقة بالحمد لرجال الدين المخلصين ولليسوعيين العالمين ، وللراهبات المشفقات اللاتي تحملني كثيراً في طيش الشباب ، ولكن على القارئ أيضاً أن يذكر أنني حصلت على جزء كبير من تعليمي خلال محاضراتي التي ألقيتها مدى ثلاثة عشر عاماً في كنيسة مشيخية *Presbyterion church* تحت رعاية رجال من البروتستنت المخلص المتسامحين مثال يوناتان داي ، وولين ادامز براون ، وهنري سلون كفن ، وادم تشارفي ، وإن كثيرين من الرجال المخلصين الذين كانوا يستمعون إلى محاضراتي في تلك الكنيسة المشيخية كانوا يهوداً أوتوا من التعطش للعلم والفهم ما جعلني أنظر إلى بني ملتهم نظرة نافذة جديدة . ولهذا فإنه إذا كان بين الناس من يجدون مبرراً للتحيز في أحكامهم ، فإنني أنا أقلهم عذراً من هذه الناحية ، وإني لأشعر نحو جميع الأديان بذلك العطف الصادق الذي يمتليء به قلب من عرف أن الإيمان بالعقل نفسه إنما هو إيمان مزعزع ،

وأنا جميعاً كسفت من الظلام الخالك نتحسس الطريق لنور الشمس ، وإنى لا أعرف عما وراء هذه الحياة أكثر مما يعرف أقل طفل في الطرقات .  
وانى لأشكر للدكتور أرثر اتهم بوب مؤسس معهد اسية لتصحيحه بعض ما كان فى الفصول الخاصة بالإسلام من أخطاء ، وللدكتور جيرسن كوهين عضو حلقة الدراسات الدينية اليهودية الأمريكية مراجعته الصفحات الخاصة باليهود ، ولصديقى هنرى كوفمان من رجال لوس انجليز قراءته الجزء الخاص بالموسيقى ولزوجتى عظيم مساعدتها الدائمة العظيمة وملاحظاتها القيمة عن كل صفحة طوال كدحنا متعاونين فى تأليف هذا الكتاب .

وإذا ما تجمل القارئ بالصبر فيسخرج له مجلداً آخر نختتم به هذه السلسلة وهو المجلد السابع الذى سنسميه عصر العقل ، وسيظهر هذا المجلد بعد نحو خمس سنوات من هذا الوقت ، وسيواصل الحديث عن قصة الحضارة إلى أيام نابليون . فإذا فرغنا من هذا العمل ودعناه وانسحبنا من الميدان شاكرين كل الشكر من حملوا بأيديهم عبء هذه المجلدات وتغاضوا عما لا يحصى من الأغلط فى هذه المحاولة التى نبغى بها تحليل الحاضر إلى عناصره التى ينطوى عليها الماضى . ذلك ان الحاضر ليس إلا الماضى مطوياً ينتظ من يبسطه للعمل كما أن الماضى هو الحاضر مبسوطاً لمن يريد أن يفهم .

لوس انجليز فى ١٢ مايو سنة ١٩٥٧ ول ديورانت .

## كيفية استعمال هذا الكتاب

- ١ - حذفنا من النص تواريخ مولد الأشخاص ووفاتهم .
- ٢ - الفقرات التي كتبت للقارئ المتعمق لا للقارئ العادي قد كتبت

بالحظ الصغير

- ٣ - قد لخصنا في الباب الأول من هذا المجلد بعض الفقرات الواردة في المجلد الخامس الخاص بالنهضة في إيطاليا والتي تبحث في تاريخ الكنيسة قبل الإصلاح
- ٤ - ستقدر في هذا المجلد قيمة الكرون والليرة والفلورين والدوقية أثناء القرنين الرابع عشر والخامس عشر بخمسة وعشرين دولاراً من نقود الولايات المتحدة في عام ١٩٥٤ وستقدر قيمة الفرنك والشلن بخمسة دولارات والأيكو بخمسة عشر دولاراً والمارك بـ ٦٦,٦٧ دولاراً والجنيه الاسترليني بمائة دولار على أن هذه القيم كلها تقريبية تقوم على الحدس والتخمين كما أن ما حدث لهذه النقود من تخفيض مراراً عدة يزيد من جعل هذه القيم معرضة للتفاوت الكثير وتلاحظ هنا أن : الطالب في عام ١٣٩٠ كان يستطيع أن يعيش في أكسفورد على : شلنين في الأسبوع ، وأن جواد جان دارك كان يساوي في عام ١٤٢٤ مئة عشر فرنكاً ، وأن أجر خادمة عند والد ليوناردو دافنشي في عام ١٤٦٠ لم يكن يزيد على ثمانية فلورينات في العام .

oboeikenda.com

## مؤلف الكتاب

ولد ول ديورانت مؤلف هذا الكتاب في تورث ادمز بولاية ماساشوستس بالولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٨٨٥ وتلقى تعليمه الأول في مدارس الابروشية الكاثوليكية في تلك الولاية في كرنى بولاية النيوجرس ثم انتقل بعدئذ إلى كلية القديس بطرس الحزويتية في مدينة جرسى ثم إلى جامعة كولومبيا بنيويورك واشتغل أثناء صيف عام ١٩٠٧ مراسلاً لجريدة ولكنه وجد العمل مشيراً لأعصابه فقتع بتدريس اللغات اللاتينية والفرنسية والإنجليزية هي وموضوعات أخرى في كلية سيتون هول بمقاطعة ثوث أورنج بولاية نيوجرس (١٩٠٧ - ١٩١١) حيث التحق بحلقة الدراسات في عام ١٩٠٩ ولكنه غادرها في عام ١٩١١ لأسباب ذكرها في كتابه «الانتقال». ثم انتقل من حلقة الدراسات إلى دوائر الرديكالية في نيويورك وعمل مدرساً في مدرسة فرو (١٩١١ - ١٩١٣) وكانت هذه تجربة في التفكير الحر في عالم التربية. وفي عام ١٩١٢ طاف بأوروبا على نفقة الدن فريمان وهو صديق له أخذ على عاتقه أن يساعده على توسيع أفاق تفكيره. وفي عام ١٩١٣ عاد إلى الدراسة في جامعة كولومبيا وتخصص في عالم الأحياء يتلقاه على مرجان وكالكنز. وفي الفلسفة على يد دود بريدج وديوى.

ونال درجة دكتور في الفلسفة من هذه الجامعة في عام ١٩١٧ ومكث يعلم الفلسفة في تلك الجامعة وفي عام ١٩١٤ بدأ يلقي في إحدى الكنائس المشيخية في الشارع رقم ١٤ والشارع الثاني في نيويورك محاضرات في تاريخ الفلسفة والأدب مهدت له السبيل لكتابة « قصة الفلسفة وقصة الحضارة ». ذلك أن معظم مستمعيه كانوا من العمال والنساء الذين يتطلبون أن تكون المادة التاريخية الخليقة بالدراسة واضحة كل الوضوح ذات أثر في العصر الذي يعيشون فيه وفي عام ١٩٢١ أنشأ مدرسة لير تمبل التي

أصبحت من أكثر التجارب نجاحاً في تعليم الكبار ولكنه غادرها في سنة ١٩٢٧ ليتفرغ لكتابة قصة الحضارة فطاف بأوروبا مرة أخرى في عام ١٩٢٧ وسافر حول العالم لدراسة أحوال مصر والشرق الأدنى والهند والصين واليابان في عام ١٩٣٠ طاف حول العالم مرة ثالثة في عام ١٩٣٢ زار في خلالها بلاد اليابان ومنشوريا وسيبيريا والروسيا . وأثمرت هذه الأسفار المجلد الأول من قصة الحضارة وهو تراث الشرق وقضى ديوارنت قبل أن يبدأ في تأليف المجلد الثاني من قصة الحضارة وهو حياة اليونان صيفاً طويلاً في بلاد اليونان نفسها زار في خلاله أشهر مراكز الحضارة الهيلينية ودرس آثارها وكان طوافه ببلاد البحر المتوسط عوناً له على كتابة المجلد الثالث « قيصر والمسيح » في عام ١٩٤٤ وقضى ستة أشهر من عام ١٩٤٨ في تركيا والعراق وإيران ومصر وأوروبا الغربية ليستعد فيها لكتابة المجلد الرابع . عصر الإيمان ( ١٩٥٠ ) ثم عاد إلى إيطاليا في علم ١٩٥١ ليعد العدة للمجلد الخامس من قصة الحضارة وهو عصر النهضة ( ١٩٥٣ ) وسافر بعدئذ إلى ألمانيا وسويسرا وفرنسا وإنجلترا في عام ١٩٥٤ لكي يدرس الأماكن المتصلة بالإصلاح الديني وما فيها من آثار استعداداً لكتابة هذا المجلد السادس . ويرجو الدكتور ديوارنت أن يفرغ من تاريخ الحضارة في عام ١٩٦٢ بعد إصدار المجلد السابع من هذه السلسلة وهو عصر العقل الذي يروي قصة الحضارة إلى أيام نابليون وإلى عام ١٨٠٠ وسيبلغ عندئذ السابعة والسبعين من عمره ويكون من حقه بعدئذ أن يستريح .

oboeikenda.com

# الباب الاول

## الكنيسة الكاثوليكية الرومانية

١٣٠٠ - ١٥١٧

### الفضل الأول

#### فضل المسيحية

الدين آخر ما تبدأ الأذهان بفهمه . ولربما كنا في أيام شبابنا قد بررنا في تعال وكبرياء بما فيه من أمور محبة وان لم تقبلها العقول ، وفي السنين التي نكون فيها أقل ثقة بما نتلقاه من تعاليمها يأخذنا العجب من بقاء هذا الدين مزدهراً في عصر ينصرف الناس فيه إلى العلم وإلى شئون الدنيا ويدهشنا بعثه من جديد بعد أن تلقى الضربات القاتلة على أيدي أبيقور أو لوكر بشيوس أو لوشيان أو ما كيا في أو هيوم أو فولتير . ترى ما هو السر الذي من وراء هذه المرونة التي تبعث فيه الحياة من آن إلى آن ؟

ان أعقل الناس ليتطلب أن تمتد حياته مائة مرة لكي يستطيع الإجابة عن هذا السؤال إجابة شافية . ولربما كان أول ما يفعل هو أن يدرك بأن ثمة ظواهر لا يحصيها عدا حتى في الأيام التي يبلغ فيها العلم ذروة مجده ينخيل إليه أنها تعز على الفهم ولا يستطيع تعليلها بالعلل الطبيعية أو يقيسها أو يعرف نتائجها المحتومة . فأسرار العقل مثلاً لاتزال تخفى على قوانين علم النفس وفي علم الطبيعة نجد أن نظام الكون المدهش العجيب الذي يجعل العلم ميسراً مستطاعاً قد يعمل هو نفسه على توكيد الإيمان الديني القائل بوجود عقل كوني مدبر لهذا العالم . وان معارفنا لأشبه بسراب بقية كلما اقتربنا منه زاد

obseikenda.com

بعداً عنا ، وقل من الناس من إذا سئل عن أمر قال لا أدري ، فإذا واجهته ظاهرة له لا يعرف من قبل حقيقة أمرها عزاها إلى أسباب طبيعية أو خارقة للطبيعة وتصرف بما يتفق مع تعليله هذا أو ذاك ، ولست تجد إلا قلة ضئيلة من العقول تستطيع أن تراث في حكمها إذا وقفت أمام الشواهد المتناقضة ، أما الكثرة الغالبة من بني الإنسان فتحس بأن لا بد لها أن تغزو ما ترى من الموجودات أو الحوادث إلى كائنات علوية لا تتقيد بالقوانين الطبيعية ، ولقد كانت الأدبان ( الأولى ) هي عبادة خوارق الطبيعة من الكائنات - باسرها ، والتوسل إليها ، أو تمجيدها . وما أكثر من يفضجون من الحياة ويألمون منها ، فيطلبون العون من الكائنات الخارقة للطبيعة إذا لم يجدوا هذا العون في القوى الطبيعية ، فتراهم يعتنقون وهم شاكرون مغتبطون أدبانياً تهت في حياتهم الكرامة والأمل ، وتضفي على العالم نظاماً ومعنى لا وجود لها بغير هذه الأدبان ، وإن من الصعب على نفوسهم أن تغض الطرف صابرة عما في الطبيعة من قسوة ووحشية تصيب الناس خبط عشواء ، وما يحدث في تاريخ العالم من منازعات ومن إراقة للدماء ، وما يصيبهم هم أنفسهم من محن وبلايا وحرمان إذا لم يؤمنوا بأن هذه كلها جزء من خطة إلهية مرسومة بعز عليهم فهمها وإدراك مرها ، ان العالم إذا لم يكن له سبب أو مصير يعرف حقاً أشبه بسجن للعقول ، فنحن نتوق إلى الاعتقاد بأن للمسرحية الكبرى منشأ عادلاً وغاية سامية .

هذا إلى أننا نعرض على البقاء ، ويصعب علينا أن نعتقد أن الطبيعة قد كدت وأجهدت نفسها حتى أوجدت الإنسان ، والعقل ، والحب والإخلاص لا لشيء إلا لتلقى بها ظهرياً متى نضجت وكل نماؤها . والعلم يهب الإنسان في كل يوم مزيداً من القدرة ، ولكنه ينقص من شأنه على مر الأيام ، فهو يرقى بآلاته وأدواته ولكنه لا يعنى بأهدافه وأغراضه ، ولا يكشف له عن الأصول والقيم والأهداف النهائية ، ولا يضفي على الحياة

والتاريخ معنى أو قيمة لا يقضى عليها الموت أو الزمن المهلك المبيد لكل شيء . ومن أجل هذا يؤثر الناس العقيدة غير القائمة على العقل والبحث الصحيح على الإحجام والتوكل العقلي ، ذلك أنهم يملون التفكير المحير ، والحكم غير القاطع ، فيرحبون بقيادة دين ذي سلطان على نفوسهم ، وبأن يتطهروا من الخطايا بالاعتراف بذنوبهم ، وبالإيمان بدين ثابت قديم . وهم حين يستحون من الاخفاق ، ويشكلون من يحبون ، وتظلم نفوسهم لما اقترفوا من ذنوب ، ويرهبون الموت يحسون بأنهم إذا لقوا العون من الله تطهروا من الذنب والجريمة ، وفارقهم الرعب ، واطمأنوا وامتألت قلوبهم بالأمل ، وسموا إلى أسمى المنازل وكان ما لهم الخلود .

والدين في أثناء هذا يهب المجتمع والدولة هبات مستورة تسرى في جميع أجزائها ، فطقوسه تهديء النفس وتوثق الرابطة بين الأجيال ، فالكنيسة الابرشية تصبح بمثابة بيت عام تؤلف من الأفراد جماعة ، وترفع الكتدرائية رأسها تعلز في فخر وازدهاء أنها من عمل البلدة موحدة ، وتزدان الحياة بالفنون المقدسة وتصب الموسيقى الدينية نغماتها المهدئة في نفس الفرد والجماعة . ويعرض الدين رضاه وتأييده السماوى للقانون الأخلاقى الذى تنفر منه فطرتنا ولكنه مع ذلك لا غنى عنه للحضارة . ويعرض على عقول البشر ربا سمياً بصيراً ويهددهم بالعقاب السرمدى ويعدهم بالنعيم الدائم ويصدر إليهم أوامر ليست من سلطة بشرية مزعزعة بل صادرة عن قوة الهية لا سبيل إلى عصيانها وإذا كانت غرائزنا قد تكونت خلال ألف قرن من الزمان وكان الأمن فيها مزعزعاً مضطرباً يطارد فيها الإنسان الحيوان ويطارده ، فإنها قد جعلتنا صائدين أشداء وديدننا العنف وطبيعتنا تعدد الأزواج بدل أن تجعلنا مواطنين مسالمين . وإذا كان ذلك العنف القديم الذى استلزمته حياتنا الأولى يزيد على ما تحتاجه حياتنا الاجتماعية الحاضرة فإن غرائزنا يجب أن تفرض عليها مئات من القيود كل يوم على علم منا أو غير علم

حتى يمكن قيام المجتمع والحضارة . لهذا استعانت الأسر والدول قبل التاريخ بأجيال طوال بقوة الدين لكي تخفف من غرائز الإنسان الهمجية ووجد الآباء في الدين عوناً لهم على كبح جماح أبنائهم المعاندين وإبعادهم عن الشطط وتعويدهم ضبط النفس ، واستعان المربون بالدين فكان لهم وسيلة ذات أثر عظيم في تهذيب الشباب وتعويده النظام والرقّة واتخذته الحكومات من أقدم الأزمنة عوناً لها على إقامة صرح النظام الاجتماعي وتخليصه من الأناية المقطعة لأوصال المجتمع مما طبع عليه الناس من فوضى . ولو أن الدين لم يوجد لابتدعه كبار المشترعين أمثال حمورابي وموسى وليقورج ونوما بمبليوس . لكنهم لم يكونوا في حاجة إلى ابتداعه لأنه ينشأ من تلقاء نفسه ويتجدد للوفاء بحاجات الناس وآمالهم .

وقد ظل الدين المسيحي خلال ألف عام من عهد قسطنطين إلى عهد دانتى يهب الأفراد والدول ما ينطوى عليه من مزايا ويقدمها لهم هبة خالصة ، وكان هو نفسه في هذه الأعوام ينمو ويتكون ، فجعل من صورة المسيح الفضائل مجسمة يغرى بها الهمجية على اصطناع الحضارة وأوجد عقيدة جعلت حياة كل إنسان جزءاً من مسرحية عالمية سامية وان تكن متواضعة ، وأنشأت علاقة قوية ذات خطة بين الإنسان وبين الإله خالقه الذي تحدث إليه في كتبه المنزلة ووضع له فيها قانوناً أخلاقياً وجعل الكنيسة مستقراً لتعاليمه وممثلاً لسلطانه على هذه الأرض . وأخذت هذه المسرحية الفخمة تنمو عاماً بعد عام ، وأخذ القديسون والشهداء يضحون بحياتهم في سبيل عقيدتهم ويضربون بذلك الأمثال لمن يأتي بعدهم من المؤمنين ويورثونهم فضائلهم ، وأنشأ الفنانون مئات الصور ومئات الآلاف من التحف الفنية يفسرون بها هذه المسرحية ويظهرونها بوضوح لعقول الناس حتى الساذجة منها غير المتعلمة فأضحت مريم العذراء أم المسيح « أينع زهرة في الشعر كله . وكانت هي نموذج الرقة النسوية التي تنسج النساء على منوالها وحنان

الأمومة توجه إليها أرق الترانيم وأعظمها خشوعاً وإخلاصاً ، وهى التى أوحى بالصروح الفخمة والتماثيل الرائعة والصور الجميلة والشعر العذب والموسيقى الحلوة وهى التى بعثت المراكب ذات الروعة التى تقوم كل يوم حول ملايين من مذابح الكنائس ومن أجلها يقوم القديس بطقوسه الغامضة الرهيبة التى تسمو بالنفس وترفعها إلى السموات العلى . والاعتراف والتوبة يطهران نفس المذنب التائب الخاشع والصلاة تطمئنه وتقويه والعشاء الربانى تقربه من المسيح قرباناً يبعث فى نفسه الرهبة والقديس الأخير يطهره ويعده للدخول الجنة وقلما أخرج دين فى رسالته للإنسانية مثل هذه الروعة الفنية .

ولقد كانت الكنيسة فى أجمل صورها حين حلت بعقائدها الموازية وطقوسها الساحرة ومبادئ اتباعها الخلقية النبيلة وشجاعة أساقفتها وغيرتهم واستقامتهم ، وعدالة محاكم أسقفياتها وطهارتها ، حين حلت بهذه كلها فى المكان الذى تخلت عنه ، حكومة الامبراطورية فكانت هى الحارس الأكبر للعالم المسيحى للنظام والسلم فى العصور المظلمة (حوالى ٥٢٤ - ١٠٧٩ م) . وأوروبا مدينة ببعث الحضارة فى الغرب بعد أن أغار البرابرة على إيطاليا وغالة وبريطانيا وأسبانيا إلى الكنيسة أكثر مما هى مدينة بها إلى أية هيئة أخرى مهما كان شأنها . فقد كان رهبانها هم الذين أصلحوا الأرض البور وكانت الأديرة هى التى تقدم الطعام للفقراء والتعليم للصبيان والمأوى للمسافرين ، وكانت مستشفياتها هى التى تعنى بالمرضى والمعوزين . وكانت أديرة النساء هى التى تلجأ إليها الأراامل ومن لا أزواج لهن فتوجه فيهن عواطف الأمومة إلى أغراض اجتماعية سامية ولقد ظلت الراهبات عدة قرون يتعهدن وحنهن بتربية البنات . وإذا كانت الثقافة القديمة لم يطغ عليها ويمح معالمها تيار الجهل والامية ، فما ذلك إلا لأن الرهبان قد نسخوا آلاف المخطوطات واحتفظوا بها وحافظوا على حياة اللغتين

اليونانية واللاتينية اللتين كتبت بهما وإن كانوا قد تركوا كثيراً من المخطوطات الوثنية تبيد على مر الزمان فقد كانت دور الكتب الكنسية في سانت جول ، وفولدا ومونتي كسينو وغيرها هي التي وجد فيها الكتاب الإنسانيون في عصر النهضة الآثار القيمة الثمينة للحضارة الرائعة التي لم تسمع قط باسم المسيح . ولقد ظلت الكنيسة ألف عام من أيام امبروز إلى ولزي تدرّب في غرب أوروبا المعلمين والعلماء والقضاة ورجال السياسة ووزراء الدولة ، وكانت الكنيسة في العصور الوسطى هي عماد الدولة وسندها . ولما انقضى عهد العصور المظلمة - ولنفترض أن ذلك كان عند مولد ابلار - كانت الكنيسة هي التي أنشأت الجامعات وشيدت الكتدرائيات القوطية فأوجدت بذلك بيوتاً لعقول الناس وتقواهم ، وبفضل حمايتها ورعايتها جدد الفلاسفة المدرسون ما حاولوه قديماً من تفسير غوامض الحياة البشرية ومآل العقل الإنساني . ولقد ظل الفن الأوربي كله تقريباً طوال تسعة قرون يتلقى الإلهام والمال من الكنيسة ، وحتى عندما تلون الفن باللون الوثني ظل بابوات النهضة يناصرونه ويولونه الرعاية فكانت الموسيقى في أسنى صورها ابنة الكنيسة .

وأكثر من هذا كله أن الكنيسة في عنفوان مجدها هي التي أمدت دول أوروبا بالقانون الأخلاقي العام الذي كان متبعاً فيها كلها كما أمدتها بنظام حكمها . وكما أن اللغة اللاتينية التي تعلمها الكنيسة في الكنائس كانت هي الأداة التي وحدث أساليب التعليم والأدب والعلم والفلسفة في الأمم المختلفة ، وكما أن طقوس المذهب الكاثوليكي - أي العالمي - وعقيدته هي التي وهبت أوروبا الوحدة الدينية قبل أن تنقسم إلى قوميات مستقلة ذات سيادة ، فإن الكنيسة الرومانية التي تعزو نشأتها وزعامتها الروحية إلى الله سبحانه وتعالى قد طلبت أن تكون هي محكمة دولية تحاسب جميع الحكام والدول من الناحية الأخلاقية . وقد صاغ البابا جريجوري السابع مبدأ الجمهورية المسيحية الأوروبية هذا الصياغة القانونية واعترف به الامبراطور هنري الرابع حين

خضع لجرىجورى فى كانوسا ( سنة ١٠٧٧ ) ، وبعء قرن من ذلك الوقت  
أذل امبراطور أعظم منه قوة هو فرءريك بربروسيا نفسه أمام بابا أضعف  
من جريجورى هو اسكندر الثالث بعء عناء طويل ومقاومة لم تجءه نفعاً ،  
وفى عام ١٠٩٨ رفع البابا إنوسنت الثالث سلطان البابوية ومقامها إلى درجة  
بءا معها أن المثل الأعلى الذى كان يطمح فيه جريجورى وهو أن تكون  
الكنيسة صاحبة السلطان الأعلى على الءول من الناحية الءلقية - بءا أن هذا  
المثل قد تحقق إلى حين ۞

لكن هذا الءلم اللءىء قد ءحطم على صخرة الطبيعة البشرية . ذلك أن  
المشرفين على السلطة القضاية البابوية قد أثبتوا أنهم من طينة البشر وأنهم  
مءحزون جشعون بل نهمون يءزون الأموال ، وأن الملوء والشعوب كانوا  
أيضاً بشراً مثلهم يرفضون الخضوع لسلطة فوق سلطة أمءهم . وبعء ءورة  
فرنسا المضطربة النماء فى قلوب بنىءا الكبرياء والحرص على السيادة القومية ،  
فقام فليب الرابع يءءى سلطان البابا بونى فاس الءامن على أملاك الكنيسة  
وكلل هذا الءءى بالنجاح ، وزج منءوبو الملىء بالبابا الكبر السن فى السجن  
فى اءبان حيث قضى ءلاثة أيام لم يلبء بعءها أن وافءه المنية ( ١٣٠٣ ) .  
وهنا وفى تلك الساعة بءأ الإصلاح الءىنى من إءءى نواحيه الأساسية -  
وهى خروج الءكام المءنيين على سلطان البابوات .

## الفصل الثاني

### الكنيسة في الخضيض

١٣٠٧ : ١٤١٧

كانت الكنيسة في القرن الرابع عشر تعاني للذل السياسي والانهار الخلقى . لقد بدأت أول عهدا يحدوها الإخلاص العميق والولاء الذي اتصف به بطرس وبولس ثم نمت فأصبحت نظاماً جليلاً يعمل على تهذيب الأسرة والمدرسة والمجتمع والعالم بأسره وينشر حسن النظام وكريم الأخلاق . أما الآن فقد أخذت تنحط حتى لم يعد لها هم إلا المحافظة على مصالحها المكتسبة وكل ما تعنى به هو المحافظة على بقائها وأموالها . وقد استطاع فليب الرابع أن يعمل على اختيار رجل فرنسي للبابوية ، وأقنعه بأن ينقل الكرسي البابوي إلى مدينة اثنيون على نهر الرون . وظل البابوات بعدئذ ثمانية وستين عاماً يبادق وسجناء في أيدي فرنسا وسرعان ما أخذ الاحترام الذي كانوا يلقونه من تلك الأمم ينقص تدريجاً ، كما أخذت مواردهم ينضب معيها . وشرع البابوات من ضيقهم يملأون خزائهم بالمال يحصلون عليه يفرض الضرائب التي لا عداد لها على رجال الدين وعلى الأديرة والأبرشيات . وكانوا يطلبون إلى كل رجل يعينونه في مناصب الكنيسة الإدارية نصف ما يحصل عليه من منصبه في العام الأول ثم عشر ما يحصل عليه منه في الأعوام التالية . وكان على كل كبير أساقفة أن يؤدي إلى البابا مبلغاً كبيراً من المال نظير الطيلسان وهو شريط من الصوف الأبيض يلبسه كبير الأساقفة ويعد رمزاً لسلطانه وتوكيداً له . وإذا مات كردنال أو كبير أساقفة أو أسقف أورثيس دير عادت أملاكه إلى البابوية ، وفي خلال الفترة الواقعة بين موت أحد رجال الدين وتعيين خلفه كان البابوات يستولون على إيراد منصبه ، وكانوا

يهتمون بإطالة هذه الفترة عامدين حتى ينالوا من المال أكثر ما يستطيعون .  
وكان كل حكم يصدره مكتب البابوية الإدارى ( الكيوريا ) أو كل نفع  
يسديه ينتظر أن يودى إليه عطية قيمة اعترافاً من صاحبه بما نال من نفع ،  
وكان الحكم فى بعض الأحيان يتوقف على قيمة العطية .

على أن كثيراً من هذه الضرائب البابوية لم يكن إلا وسيلة مشروعة تحصل  
بها على المال ، الإدارة المركزية للكنيسة التى كان لها على المجتمع الأوربى سلطان  
أدبى أخذ يتناقص على مدى الأيام . غير أن بعض هذا المال كان يذهب  
ليتختم بطون رجال الدين ، بل إن منه ما كان يذهب إلى جيوب الحظاينا  
اللاتى كانت تزدحم بهن حجرات بيوت البابوات فى افنيون . وليس أدل  
على ذلك من هذه الرسالة التى قدمها وليام ديورانند أسقف مند إلى مجلس فينا  
( ١٣١١ ) وقد جاء فيها :

يستطاع إصلاح الكنيسة كلها إذا ما بدأت كنيسة روما بالإقلاع عن  
المثل السيئة التى تضربها بنفسها لغيرها من الكنائس . وهى التى تسىء  
إلى سمعة الناس وتكون بمثابة الوباء الذى تسرى عدواه إلى جميع الناس ...  
ذلك أن كنيسة روما قد ساءت سمعتها فى جميع الأقطار حتى أصبح الناس  
يعلنون فى خارج روما أن جميع من تضمهم من الرجال من أكبرهم مقاماً  
إلى أصغرهم شأناً قد امتلأت قلوبهم بالطمع والجشع . . . وأن رجال الدين  
يضربون لجميع الشعب المسيحى أسوأ المثل فى النهم ، وهذا واضح لا خفاء  
فيه معروف فى جميع الأقطار لأن رجال الدين أكثر انغماساً فى الترف ...  
من الأمراء والملوك .

وقد رفع الأسقف الاسبانى الفارو بلايو عقيرته بقوله : « إن الدثاب  
تسيطر على الكنيسة وتمتص دماء الشعب المسيحى » . وقد ذكر إدوارد  
الثالث ملك انجلترا ، وهو الحبير المتفنن فى فرض الضرائب ، كلمنت السادس  
بأن « خليفة الخواريين قد وكل بأن يقود غنم الرب إلى المرعى لا بأن يجز

صوفها . وفي ألمانيا كان جباة الضرائب البابوية يطاردون ، ويسجنون ، وتقطع أطرافهم ، ويخنقون . وفي عام ١٣٧٢ أقسم رجال الدين في كولوني وبون ، واكسنتن ومانز ألا يدفعوا مال الصدقات الذي فرضه عليهم جريجورى الحادى عشر .

على أن البابوات ظلوا رغم هذا التمرد والعصيان يؤكدون سلطانهم الاستبدادى على ملوك الأرض ، وحدث حوالى عام ١٣٢٤ أن كتب اجستينو ترينفو المشمول برعاية يوحنا الثانى بعد العشرين رسالة فى الدفاع عن رجال الدين رداً على المهجمات التى وجهها إلى البابوية مرسلوس من أهل بدوا ووليم أوكهام . ويقول اجرستينو فى هذه الرسالة إن سلطان البابا من سلطان الله وهو نائبه فى الأرض ، وإن طاعته واجبة وإن أثم أشد الإثم ، ومن حق مجلس الكنيسة العام أن ينزله عن عرشه إذا ثبت كفره وإلحاده ، فإذا لم يرتكب هذا فهما يكن ذنبه فإن سلطانه لا يعلو عليه إلا سلطان الله وحده وهو أعلى من سلطان جميع ملوك الأرض . ومن حقه أن يخلع الملوك والأباطرة إذا شاء وإن عارض فى ذلك رعاياهم أو منتخبوهم ، ومن حقه أن يلغى قرارات الحكام الدنيويين وأن لا يعبأ بدساتير الدول . وكل ما يصدره الأمراء من قرارات تظل غير ذات أثر إلا إذا وافق البابا عليها . والبابا أعلى مقاماً من الملائكة وهو خالق بأن يعظم كما تعظم العذراء ويعظم القديسون . وقد ارتضى البابا يوحنا كل هذا لأنه فى رأيه النتيجة المنطقية لما يعتقد به الناس كافة من أن الكنيسة قد أنشأها ابن الله ، وعمل بهذا المبدأ بإصرار لا يتحول عنه أبداً .

على أن فرار البابوات من رومة وخضوعهم لفرنسا قد قوض سلطانهم وحط منزلتهم ، وكأنما أراد بابوات افنيون أن يعلنوا على الملأ خضوعهم لسلطان فرنسا فاخترتاروا من بين ١٢٤ كردنالا ١١٣ فرنسياً .

واستشاطت الحكومة الإنجليزية غضباً من كثرة القروض التى منحها

البابوات ملوك فرنسا أثناء حرب مائة العام ، ومن أجل ذلك تغاضت عن مطاعن ويكلف على البابوية ؟ ورفض المنتخبون الألمان الذين كانوا يختارون الإمبراطور أى تدخل من جانب البابوات فى المستقبل فى اختيار الملوك والأباطرة . وفى عام ١٣٧٢ اتفق رؤساء الأديرة فى كومونى وأعلنوا على الملأ أن « الكرسى الرسولى قد انحط إلى درجة من الاحتقار تجعل المذهب الكاثوليكي يبدو معرضاً لأشد الأخطار » . وفى إيطاليا استولى على الولايات البابوية - لا يتوم رامبريا ، وولايات الحدود ، ورومانيا - رؤساء جنده مغامرون يظهرون الطاعة بالاسم للبابوات ولكنهم يحتفظون لأنفسهم بإيراد هذه الولايات كله . ولما بعث اريان الخامس مندوبين من قبله إلى ميلان ليعلنوا الفيسكنى العاصى بقرار الحرمان ، اضطرها برنابو أن يأكلا هذا القرار - بما فيه من ورق وخيوط من الحرير وأختام من الرصاص (١٣٦٢) . وعمدت فلورنس فى عام ١٣٧٦ حين قام النزاع بينها وبين البابا جريجورى الحادى عشر إلى مصادرة كل ما للكنيسة من أملاك فى أراضيها ، وأغفلت محاكم الابروشيات وهدمت أبنية محاكم التفتيش وزجت من قاومها من القساوسة فى السجن أوقلتهم شتقاً ، وأهابت بإيطاليا أن تضع حداً لكل سلطان الكنيسة الزمنى .

واتضح من ذلك الوقت أن بابوات افنيون أخذوا ينحسرون أوربا كلها مقابل خضوعهم لفرنسا وإخلاصهم لها . فلما كان عام ١٣٧٧ أعاد جريجورى الحادى عشر البابوية إلى روما .

ولما مات جريجورى فى عام ١٣٧٨ اختار مجمع الكرادلة وكانت أغلبيته الساحقة من الفرنسيين ولكنه كان يخشى غضبة عامة روما - اختار بابا إيطاليا هو اربان السادس وتبين أن اربان اسم على غير مسمى (١) ؟ فقد كان حاد الطبع عنيفاً فى تصرفاته مصراً على الإصلاحات التى لا يرتضيها

رجال الكنيسة ، وبلغ هذا الإصرار حداً أعلن معه الكرادلة الذين عادوا إلى الاجتماع أن اختياره لكرسى البابوية لم يكن قانونياً لأنه تم تحت الضغط والإرهاب ، ونادوا ببربرت من أهل جنيف بابا . وتولى ربرت منصب البابوية وتسمى باسم كلمنت السابع واتخذ افيونيون مقراً له ولكن اربان أصر من جهته على أنه هو البابا وجعل مقره مدينة روما . وكان الذى مهد السبيل إلى الانقسام البابوى (من ١٣٧٨ - ١٤١٧) الذى بدأ على هذا النحو ، والذى مهد السبيل لكثير من القوى التى هيات العقول للإصلاح الدينى هو قيام الدول القومية ، فقد كان هذا الانقسام فى واقع الأمر محاولة تبغى بها فرنسا أن تحتفظ بالمعونة الأدبية والمالية التى تمدها بها البابوية فى حربها ضد إنجلترا . وحذا حذو فرنسا فى هذا نابلى وأسبانيا واسكتلندة . ولكن إنجلترا ، وفلاندرز ، وألمانيا ، وبولندا ، وبوهيميا ، وبلاد المجر ، وإيطاليا ، والبرتغال اعترفت باربان ، وأضحت الكنيسة المنقسمة على نفسها سلاحاً فى أيدي المعسكرين المتنازعين وضحية لهما . ونادى نصف العالم المسيحى بأن النصف الآخر ملحد كافر مجدف فى حق الله ، محروم من حظيرة الدين . وادعى كل جانب أن المراسم الدينية التى يقوم بها قساوسة الجانب الآخر المعارض له لا نفع فيها ولا قيمة لها ، وان الأطفال الذين يعمدهم هذا الجانب أو ذاك ، والتوبة التى تتم على أيديهم ، والموتى الذين يفضون إليهم باعترافاتهم ، كل هؤلاء يبقون مذنبين اثمين ، ما لهم الجحيم - أو المطهر على أقل تقدير . وكان الإسلام الآخذ وقتئذ فى الانتشار يسر من هذا الانحلال الذى يدب فى جسم العالم المسيحى .

ولم يخف هذا العداء بموت اربان (١٣٨٩) . ذلك أن الكرادلة الأربعة عشر الذين يؤلفون معسكره اختاروا بنيفاس التاسع خلفاً له ثم اختاروا من بعده انوسنت السابع ثم جريجورى الثانى عشر ، وأطالت الأمم المنقسمة انقسام البابوية . ولما توفى كلمنت السابع (١٣٩٤)

رشح كرادلة افنيون أحد الأساقفة الأسبان لكرسى البابوية فجلس عليه باسم بندكت الثالث عشر . وعرض هذا البابا أن يستقيل من منصبه إذا حذا جريجورى حذوه ، ولكن أقارب جريجورى الذين حلوا فى مناصبهم الدينية ، أصموا آذانهم عن هذا الطلب . وتخلى بعض كرادلة جريجورى عنه ودعوا إلى انعقاد مجلس عام من رجال الدين . وألح ملك فرنسا على بندكت أن ينسحب ، ولكن بندكت أبى أن يصغى إلى الحاحه ، فما كان من فرنسا إلا أن أعلنت خروجها عن طاعته ووقفت من النزاع موقف الحياد . فلما فر بندكت إلى أسبانيا انضم كرادلته إلى زملائهم الذين تخلوا من قبل عن جريجورى ، وأصدروا مجتمعين دعوة إلى مجلس يجتمع فى بيزا ليختار بابا يرتضيه الجميع .

وكان الفلاسفة المتمردون قبل ذلك الوقت بقرن أو نحوه قد وضعوا الأسس النظرية « لحركة المجالس » . فقد كان وليم أوكهام يعارض الفكرة القائلة أن الكنيسة هى رجال الدين ، ويقول أن الكنيسة هى جماعة المؤمنين ، وأن الكل هو صاحب السلطان الأعلى على كل جزء من أجزائه ، وأن من حق هذا الكل أن يعهد بسلطانه إلى مجلس أعلى مؤلف من جميع أساقفة الكنيسة ورؤساء أديرتها ، وأن من حق المجلس المؤلف على هذا النحو أن يختار البابا ويزجره ، ويعاقبه ، ويخلعه . كذلك قال مرسلينوس من أهل بدو أن المجلس العام يمثل حكمة العالم المسيحى مجتمعاً فكيف يحق إذن لرجل واحد أياً كان شأنه أن يضع عقله فى منزلة أعلى من عقل العالم المسيحى كله ؟ وكان يرى أن هذا المجلس يجب ألا يؤلف من رجال الدين وحدهم بل يجب أن ينضم إليهم من غير رجال الدين من يختارهم الشعب . وطبق هينريخ فن لانجنشتاين أحد رجال اللاهوت الألمانى جامعة باريس ، ( ١٣٨١ ) هذه الأفكار على الانقسام البابوى وقال أنه مهما يكن ما يدعيه البابوات لأنفسهم من سلطان أعلى ، فقد حدثت فى الموقف أزمة لا يجد المنطق

وسيلة إلى الخروج منها سوى سبيل واحد . ولا يستطيع إنقاذ الكنيسة من الفوضى التي تقوض دعائمها إلا سلطة خارجة عن البابوية تفوق سلطة الكرادلة ، ولا يمكن أن تكون هذه السلطة إلا سلطة مجلس عام .

واجتمع مجلس بيزا في ٢٥ مارس ١٤٠٩ ، ودعى بندكت وجريجورى إلى المثول أمامه فلما تجاهلا هذه الدعوة أعلن خلعهما واختار بابا جديداً هو إسكندر الخامس وأمره أن يدعو مجلساً آخر إلى الانعقاد قبل أن يحل شهر مايو سنة ١٤١٢ ثم أجل جلساته . وبذلك وجد ثلاثة بابوات بعد أن لم يكن منهما إلا اثنان . ولم يخفف موت الإسكندر ( ١٤١٠ ) من حدة النزاع ، لأن كرادلته اختاروا خليفة له يوحنا الثالث والعشرين . لم يكن في البابوات بعد سميته الثاني والعشرين من هو أكثر منه عناداً وصلابة رأى . وكان هذا الزعيم المغامر وهو يحكم بولونيا نائباً عن البابا باسم بلد سارى كوسا حكم زعماء العصابات المغامرين يفرض الضرائب على كل شىء فى الولاية ويجيز لغيره من رجال الحكم فرضها . كان يفرضها على العاهرات والمغامرين والمرابين ، ويقول أمين سره أنه أغوى مائتى عذراء ، وزوجة ، وأرملة وراهبة .

ولكنه كان ذا مال وكان له جيش ، ولعله كان يستطيع انتزاع الولايات البابوية من يدى جريجورى فيضطره بذلك إلى النزول عن عرشه بعد إفلاسه . وأرجأ يوحنا الثالث والعشرون دعوة المجلس الذى أمر بانعقاده مجلس بيزا أطول ما يستطيع ، ولما افتتحه فى مدينة كنستانس فى الخامس من نوفمبر عام ١٤١٤ لم يحضره إلا عدد قليل ممن دعوا إليه من البطارقة الثلاثة ، والكرادلة التسع والعشرين ، وروساء الأساقفة الثلاث والثلاثين ، والأساقفة الخمسين ، وعلماء اللاهوت الثلاثمائة ومندوبى الجامعات الأربعين ، والأمراء الست والعشرين ، والنبلاء المائة والأربعين والقساوسة الأربعة الآلاف . ولو أن هؤلاء جميعاً قد حضروا لكان هذا المجلس أكبر مجلس فى تاريخ

المسيحية وأهم ما عقد من مجالسها منذ مجلس نيقية ( ٣٢٥ ) الذي أقر عقيدة التثليث في الدين المسيحي ، وأصدر المجتمعون في السادس من أبريل عام ١٤١٥ قراراً ثورياً يدل على الزهو والكبرياء جاء فيه :

إن هذا المجمع المقدس المنعقد في كنستانس ، بوصفه مجلساً عاماً ، مجتمعاً اجتماعاً قانونياً يرفرف عليه الروح القدس كي يحمده الله ويقضى على الانقسام القائم في الكنيسة ويعمل على جمع شملها وإصلاح شأنها في رؤسائها وأعضائها . . يأمر ، ويعلن ، ويقرر ما يأتي : أولاً : يعلن أن هذا المجمع المقدس . . . يمثل الكنيسة المجاهدة ، ويستمد سلطانه من المسيح مباشرة ، ومن ثم يجب على كل إنسان مهما كانت مرتبته ومنزله بما في ذلك البابا نفسه أن يطيع هذا المجلس في كل ما له مساس بالدين كي يقضى على هذا الانقسام القائم وتصلح الكنيسة إصلاحاً عاماً في رأسها وأعضائها . وهو يعلن كذلك أن كل إنسان . . . بما في ذلك البابا أيضاً يأبى أن يطيع أوامر هذا المجلس المقدس وقوانينه وقراراته . . . التي تهدف إلى القضاء على الانقسام أو إلى إصلاح الكنيسة ، يعرض نفسه لطائلة العقاب الذي يتناسب مع جرمه . . . وسيلجأ المجلس ، إذا لزم الأمر إلى غير ذلك من أساليب العدالة (١١) .

وطالب المجلس بخلع جريجورى . الثاني عشر وبندكت الثالث عشر ويوحنا الثالث والعشرين . ولم يتلق من يوحنا جواباً على طلبه فقبل ما عرض عليه من التهم الأربع والخمسين التي تهم يوحنا هذا بأنه كافر مستبد ، كاذب ، متجر بالمقدسات والمناصب الدينية ، خائن ، شهوانى ، لص ، وامتنع المجلس عن قبول ست عشرة تهمة أخرى رآها أفسى مما يليق (١٢) فلما كان اليوم التاسع بعد العشرين من شهر مايو سنة ١٤١٥ قرر خلعه - أما جريجورى فكان أكثر منه مرونة ودهاء ، فقد وافق على أن يعتزل منصبه لكنه اشترط لذلك أن يسمح له بأن يدعو أولاً المجلس إلى الانعقاد

التالى بما له من حق فى هذه الدعوة . فلما عاد المجلس إلى الانعقاد على هذا النحو قبل استقالته ( ٤ يولية ) . وأراد أن يثبت تمسكه بالدين وبسلطانه الشرعى فأمر بإحراق المصلح البوهيمى جون هوس ( ٦ يولية ) . وفى اليوم السادس والعشرين من هذا الشهر أعلن خلع بندكت الثالث عشر ، فذهب هذا البابا المخلوع إلى بلنسية حيث توفى فى سن التسعين وهو لا يزال يدعى أنه هو البابا - وفى السابع عشر من نوفمبر عام ١٤١٧ اختارت لجنة الناخبين الكردنال اتونى كولنا بابا وتسمى باسم مارتن الخامس . واعترفت المسيحية كلها بهذا البابا الجديد وبذلك انتهى الصدع البابوى .

غير أن انتصار المجلس فى هذه الناحية قد أعجزه عن تحقيق غرضه الآخر ونعنى به إصلاح الكنيسة . ذلك أن مارتن الخامس لم يكد يجلس على الكرسي البابوى حتى استحوذ من فوره على جميع ما كان للبابوية من حقوق وسلطات مختلفة ، فأخذ يغرى كل جماعة من المندوبين من كل دولة بغيرها من الجماعات وأقنعها بقبول أقل قدر من الإصلاح الغامض القليل الأذى وخضع المجلس له لأنه كان قد سئم ومل العمل فلما كان اليوم الثانى والعشرين من أبريل سنة ١٤١٨ أعلن انفضاض جلساته .

### البابوية المنتصرة

١٤١٧ - ١٥١٣

نظم مارتن الإدارة البابوية تنظيماً يمكنها من أداء عملها خير أداء ، ولكنه لم يجد سبيلاً للحصول على حاجتها من المال إلا باتباع أساليب الحكومات الدنيوية القائمة فى ذلك العهد وبيع المناصب والخدمات . وإذا كان فى وسع الكنيسة أن تبقى مائة عام من غير إصلاح ، وإن كان يصعب عليها أن تبقى أسبوعاً واحداً من غير مال ، فقد استقر رأيه على أنها أشد حاجة إلى المال منها إلى الإصلاح . وكانت نتيجة هذا ان بعث مندوب ألماني فى روما

في عام ١٤٣٠ أى قبل موت مارتن بعام واحد ، إلى أميره رسالة تكاد تضرب على نغمة الإصلاح الدينى وتندر به قال :

إن الشره يسود دوائر الحكومة فى روما ، وهى تبتدع فى كل يوم أساليب جديدة . . لابتزاز المال من ألمانيا . . وهذا هو منشأ ما نراه من الضجيج والأحقاد الكثيرة . . ومن أجل هذا ستثار أسئلة كثيرة عن أحوال البابوية ، والافسينبذ الناس آخر الأمر طاعتها لكى ينجوا من هذا الابتزاز المرهق الذى يعمد إليه الإيطاليون ، وأنا أرى أن هذا المسلك الأخير هو الذى سترتضيه معظم البلدان .

وخلف مارتن على كرسى البابوية راهب فرانشسكانى صالح تقى غير أهل لتصرف الأمور فوجد أمامه المشاكل التى تجمعت حول الكرسى الرسولى . لقد كان على البابوية أن تحكم ولايات دنيوية وان تحكم الكنيسة الدينية ، وكان على البابوات أن يكونوا رجال سياسة ملمين بشئون الدنيا ولم يكونوا قديسين فحسب . ولسنا ننكر أن يوجينوس الرابع كان يستطيع أن يكون قديساً لو أن متاعبه لم تملأ قلبه حقداً . فقد حدث فى السنة الأولى من ولايته أن عاد مجلس بازل فأكد من جديد سيادة المجلس العامة على البابوات واستحوذ على ما كان للبابوية من وظائف تمارسها من عهد طويل فنقلها إليه واحدة بعد واحدة . من ذلك أنه أخذ يصدر صكوك الغفران ويعين من يشغلون المناصب العامة ويطلب أن ترسل بواكير المرتبات الدينية إلى المجلس لا إلى البابا . فما كان من يوجينوس إلا أن أمر المجلس بالانفضاض ، فرد عليه المجلس بأن خلعه وعين أماديوس الثامن دوق سافوى بابا معارضاً باسم فلкс الخامس ( ١٤٣٩ ) . وهكذا تجدد الانقسام البابوى .

وأراد شارل السابع ملك فرنسا أن يتم ما خيل إليه أنه هزيمة للبابوية فدعا إلى الانعقاد جمعية مؤلفة من الأساقفة الفرنسيين والنبلاء والمحامين

أعلنت أن للمجالس العامة السلطة العليا وأصدرت قرار بوج التنظيمي (١٤٣٨) الذي ينص على أن الوظائف الدينية ستشغل من ذلك الوقت بمن يختاره لها رجال الدين المحليون ، على أنه يجوز للملك أن « يوصى » في ذلك بما يراه ، وأن يحرم رفع الاستئناف إلى المحكمة البابوية إلا إذا استنفذت جميع الطرق القضائية في فرنسا نفسها ، ولا ترسل بعدئذ بواكير مرتبات الوظائف الدينية إلى البابا . وكان معنى هذا في الواقع أن القرار التنظيمي قد أنشأ كنيسة فرنسية مستقلة وجعل ملك فرنسا رئيس هذه الكنيسة . وبعد عام من ذلك الوقت اتخذت جميعة منير قرارات تهدف إلى إقامة كنيسة قومية في ألمانيا شبيهة بالكنيسة الفرنسية . وكانت بوهيميا قد انفصلت من قبل عن البابوية ولاح أن الكنيسة الرومانية توشك أن تنهار .

وأنقذ الأتراك يوجينيوس من هذا الموقف الحرج . ذلك أنه لما قرب العثمانيون من القسطنطينية قررت الحكومة البيزنطية أن عاصمة الدولة خليقة بقداس روماني ، وأن عودة المذهبين اليوناني واللاتيني إلى الاتحاد ضرورة لا بد منها للحصول على المعونة العسكرية أو المالية من أوروبا الغربية . ولهذا جاء الأساقفة والنبلاء اليونان في مواكب فخمة إلى فيرارا ثم انتقلوا إلى فلورنس ليلتقوا برجال الكنيسة الرومانية الذين استدعاهم البابا لهذا الغرض (١٤٣٨) . وقضى الطرفان في الأخذ والرد عاماً كاملاً وصلاً بعده إلى اتفاق اعترفت فيه بسلطة الرئيس الديني في روما على جميع العالم المسيحي ، ولما حل اليوم السادس من شهر يوليو عام ١٤٣٩ ركع جميع أعضاء المؤتمر وعلى رأسهم إمبراطور الروم نفسه أمام يوجينيوس الذي خيل إلى العالم منذ وقت قريب أنه الرجل الذي نبذته المسيحية واحتقرته أشد الاحتقار ، على أن هذا الاتفاق لم يطل عهده لأن رجال الدين اليونان وغير رجال الدين في تلك البلاد نكثوا عهدهم ، لكنه مع هذا أعاد إلى البابوية مكانتها وساعد على القضاء على الانقسام البابوي الجديد وعلى مجلس بازل :

وتلا ذلك قيام طائفة من البابوات الأقوياء خلف بعضهم بعضاً أغنتهم ورفعت من مقامهم النهضة الإيطالية ، فرفعوا البابوية إلى درجة من الفخامة لم تشهد مثلها من قبل حتى في أيام أنوسنت الثالث ذلك البابا الفخور . ونال نقولاس الخامس إعجاب الكتاب الإنسانيين بأن وجه إيراد الكنيسة إلى مناصرة العلم والفن ، وبدأ كلكتس الثالث تلك العادة الظريفة عادة منح الوظائف الدينية للأقارب ، وهي التي كانت مصدراً نخباً للفساد في الكنيسة . وكافح بيوس الثاني ، الذي كان مؤلفاً نابهاً وبابا عظيماً ، لإصلاح الإدارة البابوية والأديرة ، وألف لجنة من كبار رجال الدين المشهود لهم بالاستقامة والتقوى لدراسة معايب الكنيسة واعترف لهذه اللجنة في صراحة بأن :

أمرين هما أقرب الأمور إلى قلبه ، حرب التبرك وإصلاح البلاط الروماني ، وأن إصلاح الأمور الكنسية كلها ، وهو ما اعترزم المضي فيه ، ليتوقف كله على إصلاح أحوال البلاط البابوي الذي أريد أن يكون مثلاً يحتذى . وفي عزمي أن أبدأ بإصلاح أخلاق رجال الدين في هذا البلد وان أقضى على كل ما فيه من بيع الوظائف الدينية وغير ذلك من المساويء<sup>(١)</sup> .

وأصدرت اللجنة توصيات محمد عليها وصاغ بيوس هذه التوصيات في مرسوم بابوي . لكن روما لم يكن فيها إلا القليل ممن يريدون الإصلاح لأن نصف من كان فيها من الموظفين والكبراء كان يستفيد من هذا العيب أو ذاك ، ولهذا أحبط الحقد وأحبطت المقاومة السلبية أعمال بيوس بينما كانت الحرب الصليبية العقيم التي شنها على الأتراك ثمة تشغل باله وتستنفذ قواه وماله . وقد وجه قبيل آخر ولايته نداءً أخيراً إلى الكرادلة قال فيه :

يقول الناس أننا نسعى في حياتنا وراء اللذة ونكدرس الثروة ، ونتصرف بالكبرياء والغطرسة ، ونمتطي صهوة البغال الثمينة والحياض المظهمة . . . ، ونربي الكلاب للصيد ، وننفق المال الكثير على الممثلين والطفيليين ، ولانفق

شيئاً منه للدفاع عن الدين . وإن فيما يقولون لبعض الحق ، ذلك أن كثيرين من الكرادلة وغيرهم من الموظفين في بلاطنا يعيشون هذه المعيشة أونحوها : وإذا أردتم الحق فإن ما في بلاطنا من ترف وتباه ليزيد على الحد الواجب . ومن أجل هذا ترى الناس يبغضوننا ويحقدون علينا فيمنعهم ذلك من الاستماع إلينا وإن قلنا ما هو عدل يرتضيه العقل . فإذا ترون أن نفعنا في هذه الأمور التي تجلنا بالعار ؟ . . ان علينا أن نبحث عن الوسائل التي اتبعها أسلافنا فنالوا للكنيسة السلطة - والاحترام وعلينا بعدئذ أن نحفظ بهذه السلطة بتلك الوسائل نفسها . وما من شك في أن الذي رفع من شأن الكنيسة الرومانية وجعل لها السيادة على العالم أجمع إنما هو الاعتداد ، والعفة ، والطهارة ، والغيرة على الدين . . واحتقار الدنيا ، والرغبة في الاستشهاد<sup>(١٥)</sup> .

وأخذت رذائل البلاط البابوي تزداد كلما قرب القرن الخامس عشر من نهايته على الرغم من الجهود التي بذلها بابوات من أمثال نقولاس الخامس وبيوس الثاني وما بذله الصالحون من رجال الدين أمثال الكردينالين جوليانو سيزاريتي ونقولاس الكوزائي<sup>(١٦)</sup> فكان بولس الثاني يلبس تاجاً بابوياً تزيد قيمته على قيمة قصر عظيم ، وجعل سكتس الرابع ابن أخيه من أصحاب الملايين ، وأقحم نفسه في ميدان السياسة ، وبارك المدفع الذي يحارب به وقائعه ، وحصل على المال اللازم لحروبه ببيع المناصب الدينية إلى من يؤدي فيها أكبر الأثمان ، واحتفل أنوسنت الثامن بزواج أبنائه في قصر الفاتيكان . وكان إسكندر السادس يرى أن بقاء رجال الدين بلا زواج خطأ يجب الإقلاع عنه كما كان يراه لوثر وكلفن ، وكان له خمسة أبناء أو أكثر قبل أن يلتزم العفة وهو بابا ، ولم ير رجال عصره فيما كان يتصف به من مرح وعدم استعفاف ما يؤخذ عليه كما قد يظن الناس ، ذلك بأن الناس لم يكونوا يرون فيما يلجأ إليه رجال الدين سرّاً من علاقات غرامية أمراً غير مألوف ، كان كل ما تأخذه أوربا على إسكندر السادس هو سياسته الخارجية التي

لا يرمى فيها إلا ولاذمة وما تأخذه على سيزارى بورجيا هو قسوته فى حروبه وأنه استرد للبابوية ولايتها وزاد الكرسي الرسولى قوة وأمدته بالكثير من المال الذى يحتاجه . وقد اتبع آل بورجيا فى هذه الخطط السياسية والمعارك الحربية جميع الخطط الحربية وأساليب الغدر وسفك الدماء التى صاغها مكيا فى بعد قليل من ذلك الوقت فى كتاب الأمير (١٥١٣) وقال أنها لا غنى عنها لتأسيس دولة قوية أو لتوحيد إيطاليا . وفاق البابا يوليوس الثانى سيزارى بورجيا فيما شنه من الحروب على البندقية النهمة الجشعة وعلى الفرنسيين الغزاة ، وكان يفر كلما استطاع من سجن الفاتيكان ، ويقود جيشه بنفسه ويحب الحياة الصعبة والحديث الحشن فى المعسكرات الحربية . وهال أوربا أن ترى أن البابوية لا تكتفى بأن تصبح سلطة زمنية فحسب ، بل ان تصبح فوق ذلك قوة عسكرية ، غير أنها مع ذلك لم يكن يسعها إلا أن تعجب بعض الإعجاب بقوة ذلك المحارب الذى أخطأت المقادير فجعلته بابا ، وترامت الأنبياء وراء جبال الألب عما كان يقدمه يوليوس من معونة للفرن ومناصرة للممتازين من الفنانين أمثال رفائيل وميكل انجلو وكان يوليوس هو الذى بدأ بناء كنيسة القديس بطرس الحديدية ، وأول من منح صكوك الغفران للذين أسهموا فى نفقات بنائها . وفى أيام ولايته قدم لوثر إلى رومة وأبصر بعينه المظالم . ذلك الاسم الذى أطلقه لورنزو ده ميديتشى على عاصمة العالم المسيحى . لم يعد فى أوربا حاكم يرى أن البابوية حكومة أخلاقية فوق الحكومات كلها تؤلف من الأمم كلها دولة مسيحية واحدة ، وذلك لأن البابوية نفسها بعد أن صارت دولة دنيوية قد اضطبغت بالصبغة القومية . وتقطعت أوصال أوربا ، كما تتطلب ذلك العقيدة الحديدية إلى أقسام صغيرة قومية لا تعترف بقانون أخلاقي منزل أودولى وتردت فى الحروب بين مختلف أقسام المسيحية ودامت خمسة قرون .

وإذا أردنا أن نصدر حكماً عادلاً على بابوات النهضة هؤلاء فإن علينا

أن ننظر إليهم في ضوء الظروف المحيطة بهم في أيامهم ، لقد كان في وسع شمالي أوروبا أن تحس بأخطائهم لأنها كانت تمدهم بالمال ولكن الذين عرفوا ما كانت تفيض به إيطاليا بين عهدي نقولاس الخامس ( ١٤٤٧ - ١٤٥٥ ) - ولو العاشر ( ١٥١٣ ) ( ١٥٢١ ) هم وخدمهم الذين كانوا ينظرون إليها بعين التسامح ذلك أن أكثرهم قد ارتضوا عقيدة النهضة القائلة ان العالم وان كان مسرحاً للدموع والمغويات الشيطانية يمكن أن يكون أيضاً منظرًا ذا جمال وحياة قوية عارمة وسعادة سريعة الزوال عابرة وان كان بعضهم صالحين أتقياء . ولم يكونوا يرون عيباً في أن يستمتعوا بنعيم الحياة والبابوية مجتمعين .

ولم تكن تنقصهم الفضائل . فقد بذلوا جهدهم كي يخلصوا رومة من القبح والأقذار التي تردت إليها أثناء غياب البابوات في أفنيون . لقد جففوا المستنقعات ( لا بأيديهم هم بل بأيدي غيرهم وهم مستريحون ) ووصفوا الشوارع ، وأعادوا بناء الجسور ومهدوا الطرق ، وأصلحوا موارد مياه الشرب وأنشأوا مكتبة الفاتيكان ومتحف الكابيتول ، ووسعوا المستشفيات ، ووزعوا الصدقات وبنوا الكنائس أورموها ، وجملوا المدينة بالقصور والحدائق ، وأعادوا تنظيم جامعة رومة ، وأعانوا الكتاب الإنسانيين على إحياء الآداب والفلسفة والفنون الوثنية القديمة وهياً وا الأعمال للمصورين والمثالين والمهندسين المعماريين الذين خلفوا وراءهم من الأعمال ما هو تراث خالد ثمين لجميع بني الإنسان . وإذا كانوا قد بددوا الملايين ، فإنهم قد أنفقوا ملايين مثلها في أعمال البناء والتعمير . ولسنا ننكر أنهم أنفقوا في بناء كنيسة القديس بطرس الحديدية أكثر مما كانت تطيقه موارد البلاد ولكن ما أنفقوه عليها ليس أكثر نسبياً مما أنفقه ملوك فرنسا فيما بعد على قصور فونتيه بلووفرساي واللوار ، ولعلمهم كانوا يظنون وقتئذ أنهم لا يفعلون

أكثر من تحويل فئات الأموال السريعة الزوال إلى مجد خالد للشعوب ولربهم.  
وكان معظم أولئك البابوات في حياتهم الخاصة يعيشون عيشة البساطة ومنهم  
مثل (الإسكندر السادس) من كان يعيش زاهداً متقشفاً ولا يظهر بمظهر  
الترف والفضخامة إلا لأن ذلك يتطلبه ذوق الشعب وعاداته وبذلك رفعوا  
البابوية إلى ذروة الجلال والسلطان بعد أن أصبحت معدمة معرضة للسخرية  
والازدراء.

## الفصل الرابع

### البيئة المتغيرة

وبينما كانت الكنيسة يبدو عليها أنها آخذة في استعادة مجدها وسلطانها ، كان يحدث في أوروبا تغيير اقتصادى وسياسى وعقلى يعمل بالتدرج على تقويض صرح المسيحية اللاتينية .

ذلك أن الدين يزدهر عادة في ظل النظام الزراعى على حين أن العلم يزدهر في ظل الاقتصاد الصناعى فكل حصاد معجزة من المعجزات في الأرض ونزوة من نزوات الجو ، والفلاح الحقير الخاضع لسلطان الجو والذي ينهكه الكدح ، يرى من حوله قوات خارقة للعادة في كل مكان ، ويوجه الدعوات والصلوات إلى السماء يسترضيها ويستميلها إليه ، ويرتضى الخضوع لنظام دينى إقطاعى يتدرج ولاؤه فيه من السيد المالك إلى الملك إلى الله . أما الصناع في المدينة والتاجر وصاحب المصنع وذو المال فيعيشون في عالم من الأرقام يحسبون فيه العمليات والكميات والأسباب المادية والنتائج المرتقية العادية . وتتهيأ الآلة ومنضدة العد والحساب عقولهم لأن يروا حكم (القانون الطبيعى) يسطر سلطانها على أرجاء آخذة في الاتساع . وكان نمو الصناعة والتجارة وتكدس الأموال أثناء القرن الخامس عشر وانتقال العمال من الريف إلى المدن وقيام طبقة التجار واتساع دائرة الاقتصاد من البيئة الصنفيه المحلية حتى أصبح اقتصاداً قومياً ثم دولياً - كل هذا كان نذير شؤم للدين الذى كان يوائم أشد المواءمة نظام الاقطاع وما يطرأ على الحقول من تقلبات تبعث في النفس الكآبة والقنوط . وأخذ رجال الأعمال يحطمون القيود التى يفرضها عليهم رجال الدين كما نيدوا من قبل الضرائب التى يفرضها

سادة الإقطاع ، وكان لابد للكنيسة أن ترضى بشيء من الشعوذة اللاهوتية المكشوفة إلى ما تحتمه ضرورة الأيام من فرض فوائدها على القروض إذا كان لابد لروؤوس الأموال أن تستخدم في توسيع دائرة الصناعة والمشروعات المالية ، وما وافى عام ١٥٠٠ حتى أصبح الناس يتجاهلون أوامر الكنيسة القاضية بتحريم «الربا» . ثم حل المحامون ورجال الأعمال شيئاً فشيئاً محل رجال الدين والأعمال في إدارة أعمال الحكومة ، وأخذ القانون نفسه ، بعد أن ظفر باسترداد تقاليد ومكانته اللتين كانتا له في عصر الإمبراطورية الرومانية ، يسبق النظم الأخرى في الانتقال من الصبغة الدينية إلى الصبغة الدنيوية ويعتدى يوماً بعد يوم على نظم الحياة الكنسية التي كانت تخضع من قبل للقوانين الدينية وزادت سلطة المحاكم الزمنية واضمحلت سلطة محاكم الأبرشيات .

وأخذت الدول الملكية الناشئة بعد أن بلغت طور الشباب وازداد ثراؤها بفضل ما تجمع لها من المال من التجارة والصناعة ، أخذت تتحرر شيئاً فشيئاً من سيطرة الكنيسة وأخذ الملوك يعارضون في وجود المندوب البابوي أو القاصد الرسولي في بلادهم لأنه لم يكن يعترف بسلطان غير سلطان البابا وبذلك جعل كنيسة كل أمة دولة داخل دولة . من أجل ذلك ضيقت القوانين التي صدرت في إنجلترا عام ١٣٥١ و ١٣٥٣ أشد التضييق سلطات رجال الدين في شؤون الاقتصاد والقضاء . وفي فرنسا احتفظ الملوك بعد إلغاء قرار بوج التنظيمي من الوجهة النظرية في عام ١٥١٦ بحقه في ترشيح كبار الأساقفة والأساقفة ورؤساء الأديرة وكبار رهبانها (١٧) وأصرت دولة البندقية على أن تعين هي من يشغلون المناصب الكنسية العالية في الأقاليم التابعة لها . وغلب فرديناند وإيزابيلا البابوات على أمرهم فانتزعوا منهم حق تعيين من يشغلون كثيراً من المناصب الدينية الشاغرة في أسبانيا وفي الإمبراطورية الرومانية المقدسة حيث استمسك جريجورى السابع بحق البابوات في تعيين رجال الدين رغم معارضة هنرى الرابع ، سلم سكستس

الرابع إلى الأباطرة بحقهم في تعيين ثلاثمائة ممن يشغلون المناصب الدينية وتعيين سبعة أساقفة وكثيراً ما كان الملوك يسيئون استخدام هذه السلطات.

فكانوا يعينون في مناصب الكنيسة من يميلون إليهم من رجال السياسة وكان هؤلاء يستحوذون على إيراد الأديرة وأملاك الكنيسة ولكنهم كانوا يتجاهلون ما عليهم من التبعات (١٨) وإن كثيراً من المفاصد الكنسية ليعزى أصلها إلى من كانوا يشغلون هذه المناصب الكنسية من غير رجال الدين .

وكانت البيئة العقلية في الكنيسة نفسها في هذه الأثناء آخذة في التغيير تغيراً يندر لها بأشد الأخطار . نعم إنها كانت لاتزال تخرج علماء مجدين ذوى ضمائر حية ، ولكن المدارس والجامعات التي أنشأتها هي من قبل كانت قد أخرجت أقلية من الرجال المتعلمين لم تكن آراؤهم مما يرضى على الدوام القديسين . فها هو ذا القديس برناردينو يقول حوالى عام ١٤٢٠ :

إن كثيراً من الناس إذا ما نظروا إلى ما يرتكبه الرهبان والإخوان والراهبات وغير هؤلاء من رجال الدين لتشمئز نفوسهم ، بل إنهم كثيراً ما يتزعزع إيمانهم ، فلا يؤمنون بشيء أعلى من أسقف منازلهم ولا يرون أن ما ورد في الكتب عن الدين صادق صحيح بل يعتقدون أنه من اختراع الآدميين وليس وحياً من عند الله . . فهم يحتقرون القربان المقدس ولا يؤمنون بوجود الروح ولا يخشون عذاب النار ولا يرغبون في نعيم الجنة ، بل إن أهم ما تتعلق به قلوبهم هو الأشياء الزائلة ويعملون على أن يكون هذا العالم الأرضى هو جنتهم (١٩)

وأكبر الظن أن طبقة رجال الأعمال كانت أقل الطبقات صلاحاً واستمساكاً بالدين ، ذلك أن الدين يضمحل على الدوام كلما زاد الثراء . فجور (١٣٢٥ - ١٤٠٨) يقول ان تجار انجلترا قلما يعنون بالحياة الآخرة ويقولون إن من يستطيع الحصول على نعم هذه الحياة ثم يتركها تفلت من يده فهو إنسان أبله فما من أحد يعرف أين يذهب بعد الموت أو من أى طريق

نذهب (٢٠) ، يضاف إلى هذا أن إخفاق الحروب الصليبية قد خلف في النفوس دهشة أخذت تتناقص على مهل يقول أصحابها كيف سمح رب المسيحية بأن ينتصر الإسلام وكان استيلاء الأتراك على القسطنطينية مما قوى هذه الشكوك ، وكانت كتابات نقولاس الكوززائي ١٤٣٢ ولورند سوفلا ١٤٣٩ التي قالا فيها إن « هيبة قسطنطين » زيف وزور ، مما حط من مكانة الكنيسة وأضعف ما تدعيه لنفسها من سلطان زمني . وفوق هذا كله فإن اكتشاف الكتب اليونانية والرومانية القديمة ونشرها كان سبباً في تقوية الشكوك لأنه كشف عن عالم من العلوم والفنون ازدهرت قبل مولد الكنيسة المسيحية وهي التي أنكرت في مجلس لاتيران الخامس ١٥١٢ - ١٥١٧ إن النجاة غير مستطاعة خارج حظيرتها (٢١) كذلك أزاح كشف أمريكا وارتداد بلاد الشرق ارتياداً آخذاً في الاتساع ، أزاح هذا وذاك الستار عن مائة أمة كانت ترفض الإيمان بالمسيح أو تتجاهله وكانت لها أديان أخرى لا تقل عن المسيحية إيجابية أو تأثيراً من الناحية الخلقية وجاء الرحالة العائدون من بلاد « الكفرة » ببعض العقائد والطقوس التي أخذت تنازع العبادات والعقائد المسيحية فأخذت هذه العقائد المتنافسة تصطرع في الأسواق وفي الثغور.

ثم إن الفلسفة نفسها التي كانت في القرن السادس عشر خاضعة لسلطان الدين وخادمة طيعة له همها كله أن تجد أسباباً يقبلها العقل لمبادئ الدين القويم ، قد حررت نفسها في القرن الرابع عشر على أيدي ولهايم الأوكهامي ومرسلوس من أهل بدوا وأصبحت في القرن السادس عشر فلسفة زمنية جريئة تجهر بتشككها بقيادة بمومنشي ومكيافلي وجوتشياردين . وقد أذاع مكيافلي قبل أن يكتب ليوثر رسالته بأربع سنين نبوءة فزع منها القوم قال : لو أن الدين المسيحي قد احتفظ به كما صدر عن مؤسسه لكانت دول العالم المسيحي أكثر اتحاداً وأعظم سعادة مما هي الآن وليس أدل على ضعفه

من أن أقرب الناس إلى الكنيسة الرومانية التي هي صاحبة السلطة العليا في هذا الدين هم أقل الناس تديناً . وان من ينعم النظر في المبادئ التي يقوم عليها هذا الدين ويرى ما بين هذه المبادئ وبين شعائرها الحاضرة وعباداتها من فرق كبير ليحكم من فوره بأن انهيارها أويوم القصاص منها لآت عن قريب .

## الفصل الخامس

### ما يؤخذ على الكنيسة

هل لنا أن نعيد هنا ذكرى التهم التي يوجهها الكاثوليك المخلصون إلى الكنيسة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر؟ إن أول هذه التهم وأشدها هي أنها كانت تحب المال وأنه كان لها منه أكثر مما يليق بها إذا أرادت لنفسها(\*) الخير وقد وجه مجلس نورنبرج في عام ١٥٢٢ مائة تهمة منها أنها تمتلك نصف ثروة ألمانيا(٢٣) وقد قدر مؤرخ كاثوليكي نصيب الكنيسة بثلاث أموال ألمانيا وخمس أموال فرنسا(٢٤) ولكن مدعياً عمومياً في برلمان فرنسا قدر ثروة الكنيسة في عام ١٥٠٢ بثلاثة أرباع أموال فرنسا كلها(٢٥) على أننا ليس لدينا من الإحصاءات ما نرجع إليه في هذه التقديرات أما في إيطاليا فإن ثلث شبه الجزيرة بطبيعة الحال كان ملكاً للكنيسة ونعني به الولايات البابوية ، هذا فضلاً عما كان لها من الأملاك القيمة في غير تلك الولايات(\*\*).

وكان لتجمع الثروة في يد الكنيسة ستة أسباب . أولها أن معظم من كانوا يوصون بأموالهم عند وفاتهم كانوا يتركون لها بعض المال وقاية لهم من نار جهنم ، وإذا كانت الكنيسة هي التي تشرف على عمل الوصايا وإثباتها فإن

---

(\*) يقول باستور في كتابه تاريخ البابوات الجزء السابع ص ٢٩٣ ما يأتي :  
ان من أسباب سقوط الكنيسة الألمانية ثراءها الفاحش الذي كانت زيادته غير المشروعة مما أثار حسد غير رجال الدين وبغضهم كما كان له أسوأ الأثر في رجال الكنيسة أنفسهم .  
(\*\*) ان معظم الكفايات في أي مجتمع تنحصر في عدد قليل من الرجال ولهذا فإن معظم الطبقات والامتيازات والسلطات تستحوذ عليها ان عاجلاً أو آجلاً أقلية من الرجال . ولقد تجمعت الثروة في يد الكنيسة في العصور الوسطى لأنها كانت تقوم بأعمال خطيرة وكان يقوم على خدمتها أقدر الرجال . وكان الإصلاح الديني من بعض نواحيه عبارة عن إعادة توزيع هذه الثروة التي تركزت بطبيعة الحال وذلك باستيلاء غير رجال الدين على ثروة الكنيسة وإيراداتها .

رجالها كانوا في وضع يمكنهم من تشجيع أمثال هذه الوصايا . وثانيها ان أملاك الكنيسة كانت أكثر أماناً من كل ما عداها من انتهاب اللصوص والجنود والحكومات ، ولهذا فإن بعض الناس كانوا ينزلون عن أراضيهم للكنيسة ليأمنوا عليها من ذلك النهب ثم يتملكونها هم منها بوصفهم عمالا للكنيسة عليها على أن يوئول كل ما لهم من حقوق إلى الكنيسة بعد موتهم . ومنهم من كان يوصى ببعض أمواله أو بها كلها للكنيسة مشرطين ان تمدهم بما يلزمهم في حالي المرض والشيخوخة فكانت الكنيسة بذلك تضمن لهم أماناً من الفقر في حالة العجز عن الكسب . وثالث هذه الأسباب أن الذين اشتركوا في الحروب الصليبية قد باعوا إلى الهيئات الدينية أراضيهم أو رهنوها لها أو نزلوا لها عنها كى يحصلوا على ما يلزمهم من المال في مغامرتهم . ورابع هذه الأسباب ان مئات الآلاف من الأفدنة قد آلت إلى الكنيسة لأن طوائف الرهبان هي التي أصلحتها . وخامسها ان ما تمتلكه الكنيسة من الأرض لا يمكن ان ينتقل إلى غيرها - فلا يمكن أن يبيعه أو ينزل عنه أحد من رجالها إلا بوسائل غاية في التعقيد تجعل هذا في حكم المستحيل . وآخر هذه الأسباب ان أملاك الكنيسة كانت في العادة معفاة من الضرائب التي تفرضها الدولة على سائر الأملاك وإن كان بعض الملوك يرغبون رجال الدين على أداء بعض الأتاوات أو يجدون ذرائع قانونية لمصادرة أجزاء من ثروة الكنيسة غير مباليين بما يصبه عليهم رجال الدين من اللعنات ، ولو أن أملاك الكنيسة أو الإيراد الناتج منها أو التبرعات التي لا حصر لها والتي كانت ترد إليها من المؤمنين برسالتها قد بقيت داخل حدود البلاد التي ينتمى إليها المتبرعون أو التي توجد فيها هذه الأملاك لكان تدمير الحكام في أوروبا الشمالية أقل شدة مما شاهدناه ، أما وان هذه الثروة لم تبق داخل تلك الحدود فإن منظر الذهب الذي كان ينساب بالآلاف الطرق من أوروبا الشمالية إلى رومة كان مما يثير حنق هؤلاء الحكام .

أما الكنيسة فقد كانت تحسب أنها العامل الأكبر في المحافظة على الأخلاق ، والنظام الاجتماعى ، والتربية والأدب ، والعلم ، والفن ، وكانت الدولة تعتمد عليها في القيام بهذه المهام ، وكان القيام بها يتطلب نظاماً واسعاً كثير النفقة ، وكان لابد لها في الحصول على هذا المال من أن تفرض الضرائب وتجبي الرسوم ، ذلك أن الكنيسة هي الأخرى لا يمكن أن تحكم بالصلوات والأدعية . وكان كثير من الأساقفة حكاماً مدنيين وكنسيين في أقاليمهم ، وكانت السلطات غير الدينية هي التي تعين معظم أولئك الأساقفة تختارهم من بين أعيان البلاد الذين اعتادوا معيشة الترف والتحرر من قيود الأخلاق ، فكانوا يفرضون الضرائب وينفقون مواردها كما يفعل الأمراء وكانوا أحياناً يجللون بالعار ذكرى القديسين بارتداء الدروع وقيادة الجند في الحروب . وقلما كان الكرادلة يختارون لتدبيرهم وتقواهم بل كانوا يختارون عادة لثروتهم أو لصلاتهم السياسية أولئك كفايتهم الإدارية ، ولم يكونوا يرون أنفسهم رهباناً مقيدين بأيمان أقسموها وإنما كانوا يرون أنفسهم شيوخاً ورجال سياسة في دولة غنية قوية ، ولم يكونوا في كثير من الأحيان قساوسة ، ولم يكونوا يسمحون لقلانسهم الحمراء أن تحول بينهم وبين الاستمتاع بمباهج الحياة<sup>(٢٦)</sup> وقصارى القول أن الكنيسة قد أنستها حاجات السلطة وما يلزمها من المال ما كان عليه الرسل الأولون من زهد وفقر .

وإذا كان خدم الكنيسة رجال دنيا لا رجال دين فإنهم لم يكونوا في كثير من الأحيان يقلون جشعاً عن موظفى الحكومات في أيامهم . فقد كان الفساد قانون ذلك العصر وطبيعة أهله ، وكانت المحاكم المدنية تشتري بالمال ولسنا نجد في انتخاب البابوات كلهم ما يضارع في الرشوة ما حدث في انتخاب شارل الخامس امبراطوراً . وإذا ما استثنينا هذا الانتخاب وحده فإن أضخم الرشاوى في أوروبا هي التي كانت تقدم إلى محاكم رومة<sup>(٢٧)</sup> لقد كانت رسوم معقولة محددة تفرض نظر الخدمات التي تقوم بها المحكمة

البابوية العليا ، ولكن جشع موظفيها رفع هذه الرسوم إلى أكثر من قيمتها القانونية عشرين ضعفاً<sup>(٢٨)</sup> وكان من المستطاع التحلل من الأوامر الدينية كلها تقريباً وقلما كانت هناك خطيئة لا يمكن غفرانها إذا كان الثمن الذى يؤدي لذلك مغرياً . وليس أدل على ذلك من أن اينياس سلفيوس كتب قبل أن يجلس على كرمى البابوية يقول إن كل شيء فى رومة يباع بالمال وان لا شيء فيها يمكن الحصول عليه بغير المال<sup>(٢٩)</sup> وأشد من هذا ما قاله سفرولا بعد جيل من ذلك الوقت بشيء من المبالغة التى تصحب الغضب على الدوام ، وهو وصف كنيسة رومة بأنها عاهر تبيع نفسها بالمال<sup>(٣٠)</sup> ومثل هذا ما قاله ارزمس بعد جيل آخر وهو « ان العار الذى يجلل المحكمة البابوية العليا قد وصل إلى ذروته<sup>(٣١)</sup> » . ثم انظر إلى ما كتبه بستور ، إن الفساد المتأصل قد استحوذ على جميع موظفي الإدارة البابوية كلهم تقريباً... فالهبات التى لا يحصى عددها واغتصاب الأموال بمختلف الأساليب قد فاق كل ما يتصوره العقل يضاف إلى هذا أن الموظفين أنفسهم كانوا يزورون العقود ويتبادلونها . فلا عجب والحالة هذه إذا علت الشكوى من جميع أجزاء العالم المسيحي مما كان يرتكبه الموظفون البابويون من رشوة وفساد واغتصاب للأموال<sup>(٣٢)</sup> .

ولم يكن مألوفاً أن يرقى ذوو الكفايات المعدمون فى مناصب الكنيسة فى القرن الخامس عشر ، فقد كان كل منصب تقريباً يتطلب رشوة الموظفين الأعلى فيها رشاوى تختلف بين المبالغ الصغيرة لتتلى منصب القساوسة ، والرشاوى الضخمة التى يؤديها كثير من الكرادلة لكنى يرقوا إلى هذا المنصب لما يتطلب التملق الخفى للأعلاء . وكان من الأساليب المحيية للبابوات لجمع المال بينهم مناصب الكنيسة ، وكان هذا فى عرف البابوات هو تعيين أشخاص يرجى أن يسهموا بالكثير من المال فيما تحتاجه الكنيسة من نفقات بمنحهم ألقاب شرف فخرية قد تصل إلى لقب الكردنال نفسه . من ذلك

ان اسكندر السادس أنشأ ثمانين منصباً جديداً وقبض ٧٦٠ دوقه ( ١٩٠٠٠ دولار ) من كل شخص عين في منصب من هذه المناصب . وأنشأ يوليوس الثاني (مجمعاً) أو مكتباً مؤلفاً من ١٠١ أمين أدوا له مجتمعين ٢٤٠٠٠ دوقه ثمناً لهذه المناصب ، ورشح ليو العاشر ٦٠ من الحجاب و ١٤١ من الأتباع في القصر البابوي واستحوذ منهم على ٢٠٢٠٠٠ (٣٣) دوقه وكان معطى هذا المال وآخذه يرون أن الأموال التي تبتاع بها هذه المناصب ليست إلا أقساطاً ثانوية في عقود تأمين ، أما لوثر فلم يكن يرى فيها إلا أنها بيع من أدناً البيوع للمناصب الكنسية .

وكان صاحب المنصب في آلاف من الأحوال يعيش بعيداً عن مقر منصبه - الأبرشية أو الدير أو الأسقفية - التي كان إيرادها ثمناً لكده أو وسيلة لترفه وكان يحدث في بعض الأحيان أن يكون شخص واحد هو القائم بالعمل في كثير من هذه المناصب . من ذلك مثلاً ان الكردينال روريجو بورجيا النشيط (الذي صار فيما بعد اسكندر السادس ) قد وهب عدة مناصب مختلفة كانت تدر عليه ٧٠٠٠٠ دوقه ( ١,٧٥٠,٠٠٠ دولار ) في العام وأن عدوه الألد الكردينال دياروفيري (الذي صار فيما بعد يوليوس الثاني ) قد كان في وقت واحد كبير أساقفة افنيون واسقفا لبولونيا ولوزان وكوتانس ، وقفير ، ومندى واستيا ونيليتوري ورئيساً لديرى نونان تولا وجبروتا فراتا(٣٤) . كان في وسع الكنيسة بالجمع بين هذه المناصب أن تؤدى مرتبات كبار موظفيها التنفيذيين وان تنفخ بالهبات السخية في كثير من الأحيان الشعراء والعلماء وطلاب العلم . وها هو ذا بترارك الناقد الشديد لبابوات افنيون كان يعيش من مرتبات المناصب الهينة المحزية التي منحه إياها أولئك البابوات ، وها هو ذا ارازمس الذي سخر من ميثاب السخافات الكنسية وهجاها الهجو اللاذع كان يقبض معاشاً منتظماً من الكنيسة ، وكوبر نيكاس الذي أصاب كنيسة الحنجر الوسطى بأعظم الأضرار قد ظل سنين

طوالا يعيش من أموال الكنيسة التي لم تكن تتطلب منه إلا القليل من الأعمال التي تحول بينه وبين أعماله العلمية<sup>(٣٥)</sup> .

ولم يكن هذا التعدد في المناصب أخطر التهم التي وجهت للكنيسة بل كان أخطر منه ما اتهم به رجال الدين من فساد في الأخلاق . وها هو ذا واحد منهم هو أسقف تورشيلو (١٤٥٨) يقول : ان أخلاق رجال الدين فاسدة يشمئز منها العلمانيون<sup>(٣٦)</sup> . وأصبح المتمون إلى طوائف الرهبان الأربع التي أسست في القرن الثالث عشر - وهي طوائف الفرانشيسكان والدمنيك ورهبان الكرمل ، والاوغسطينيين أصبح المتمون إلى هذه الطوائف كلها ما عدا الأخيرة منها مستهترين في أخلاقهم شديدي الاستخفاف بما يتطلبه مركزهم من تقى وحسن نظام . وقد تبين أن قواعد الأديرة التي وضعها منشئوها الأولون المتحمسون أشد مما تطيقه الطبيعة البشرية التي أخذت تتحرر شيئاً فشيئاً من مخاوف ما وراء الطبيعة . وإذا كان آلاف الرهبان والإخوان قد استغنوا عن العمل اليدوى بفضل ما تجمع لهم من المال الكثير ، فقد أهمل هؤلاء الخدمات الدينية وخرجوا من صوامعهم يجوسون خلال الديار ، ويتعاطون الخمر في الحانات ويتخذون لهم عشيقات . وها هو ذا راهب من الادمنيك يدعى جون بروميارد من رهبان القرن الرابع عشر يقول عن إخوانه الرهبان :

إن أولئك الذين من واجبهم أن يكونوا آباء للفقراء . . . يشتهون ألد الطعام ، ويستمتعون بنوم الضحى . . . ويمنون على الناس بحضورهم صلاة الصباح أو القداس . . . وتراهم منهمكين في الطعام والشراب إذا لم نقل في الدنس والأقذار ، حتى لقد أصبحت مجامع رجال الدين مواخير للفساد ومجتمعات من مهرجين<sup>(٣٧)</sup> .

وكرر أرازمس تلك التهمة نفسها بعد مائة عام من ذلك الوقت فقال : « ان كثيراً من أديرة الرجال والنساء قلما تختلف عن المواخير العامة<sup>(٣٩)</sup> » .

ولسنا ننكر أن بترارك قد رسم صورة طيبة لما كان يسود دير الكرثوذيين الذي كان أخوه يعيش فيه من حسن نظام وتقى وأن كثيرا من الأديرة في هولندا وغربي ألمانيا قد احتفظت بروح الدرس والصلاح التي تألفت على أساسها « طائفة إخوان الحياة العامة » وصدر منها كتاب التشبه بالمسيح ، ولكن نيوهانز تريتمبوس ، ينس وايرسينجيم (حوالي ١٤٩٠) قد ندد برهبان هذا الجزء من ألمانيا المحيط بنهر الراين تنديداً عنيفاً أشد العنف فقال :

إن هؤلاء الرجال لا يباليون بالآيمان الدينية التي أقسموها . . فإنهم لم يعدوا قط بأن يبروا بها . . . فهم يقضون النهار كله في الحديث القدر ويقضون وقتهم كله في اللعب والتهام الطعام . . وإذا كانوا يمتلكون ثروة خاصة طائلة . . فإن كل واحد منهم يعيش في مسكن خاص به . . وليس فيهم من يهاب الله قط أو يحبه . ولا يفكرون قط في الحياة الآخرة ويوثررون شهواتهم البدنية على مطالب الروح . . ويحتقرون ما أقسموا عليه من التزام الفقر ويجهلون يمين العفة وينقضون يمين الطاعة . . وإن رائحة أقدارهم لتحيط بهم من كل الجوانب (٤١) ؛

ولما أرسل جاي جوينو من قبل البابا لإصلاح أديرة البندكتيين في فرنسا كتب بعد عودته تقريراً يبعث الغم والاكتئاب في النفوس (١٥٠٣) قال فيه إن كثيراً من الرهبان يلعبون الميسر ويكثرون من السباب ، ويترددون على الخانات ، ويتسلحون بالسيوف ، ويجمعون الأموال « ويحيون حياة السكيرين » ، وهم أكثر تعلقاً بالدنيا من رجال الدنيا أنفسهم . . ولو أنني أردت أن أقص كل ما وقعت عليه عيناي لمألت بذلك صحفاً طوالاً (٤٢) . وقد كانت نتيجة الفوضى المضطردة النماء في الأديرة أن أهل الكثير أعمال الصناعات والخدمة في المستشفيات والقيام بشئون التعليم وهي الأعمال العظيمة الخليقة بالإعجاب التي استحقوا من أجلها ثقة الناس وتأيدهم (٤٣) . ويقول البابا ليو العاشر (١٥١٦) « لقد وصل اضطراب الأمور في أديرة

فرنسا وحياة الاستهتار التي يجيها الرهبان إلى حد لم يبق لهم معه أى احترام عند الملوك أو الأمراء أو المتدينين من الناس<sup>(٤٤)</sup> . وقد أجمل مؤرخ كاثوليكي وصف هذه المفاصد كلها كما رآها في عام ١٤٩٠ ، ولعله كان مبالغاً بعض الشيء في قسوته فقال :

اقرأ ما يفيض به ذلك العهد من أدلة وشواهد - طرائف تاريخية وتعنيف ينطق به رجال الأخلاق ، وهجاء يكتبه العلماء والشعراء ، ومراسيم بابوية ومجامع دينية مقدسة - ماذا تجد في هذه كلها ؟ انك لتجد فيها نفس الحقائق ونفس الشكاوى . . . التحرر من حياة الأديرة ومن النظام والأخلاق الكريمة وما أكثر ما تجد في الأديرة من لصوص وفسقة ، وإذا شئت أن تدرك ما في هذه الأديرة من فوضى فعليك أن تقرأ ما كشفت عنه البحوث القضائية من تفاصيل الحالة الداخلية للكثرة الغالبة من الأديرة الكبيرة . . . ولقد بلغت المساوى المنتشرة في أديرة الكرثوذيين درجة أصبحت معها هذه الأديرة مضرب المثل في سوء السمعة في كل مكان تقريباً . . . أما أديرة الراهبات فقد اختفت فيها حياة الرهبنة عن آخرها . . . فاستجالت دور العبادة بسبب هذه المساوى كلها بؤراً للفساد وسوء النظام<sup>(٤٥)</sup> .

أما رجال الدين غير المنتمين إلى طوائف الرهبان ، فكانوا خيراً من الرهبان والإخوان ، إذا تساهلنا في عادة التسرى التي كانت شائعة بينهم ، وكانت أكبر آثام قسيس الأبرشية هي جهله<sup>(٤٦)</sup> ولكنه لم يكن يتقاضى إلا القليل الذي لا غناء فيه من الأجر وكان يرهق بالعمل ومن أجل هذا لم يكن يجد من الوقت أو المال ما يعينه على الدرس . ، وتدل التقوى الشائعة بين عامة الشعب على أنه كثيراً ما كان محبوباً مبجلاً . وكثيراً ما كان هؤلاء القساوسة يحنثون بقسمهم الكهنوتي على أن يلتزموا العفة والطهارة . في نورفولك بانجلترا مثلاً نظرت المحاكم في ثلاث وسبعين تهمة خاصة بعدم العفة في عام ١٤٩٩ ، وكان منها عشر تهمة موجهة إلى رجال الدين ،

وفي ريبون كانت أربع وعشرون تهمة من ١٢٦ موجهة إلى رجال الدين ،  
وفي لامبث كانت تسع تهم من ثمان وخمسين موجهة إلى رجال الدين ،  
ومعنى هذا ان ثلاثاً وعشرين في المائة من مجموع هذه التهم موجهة إليهم  
مع أن رجال الدين كلهم كانوا في أغلب الظن أقل من اثنين في المائة من  
مجموع السكان (٤٧) . ومن رجال الدين من كانت لهم صلوات جنسية  
بالتائبات من النساء (٤٨) . وكان للآلاف من القساوسة حظايا ، وفي ألمانيا  
كان لهم كلهم تقريباً (٤٩) وفي رومة كان هذا هو الأمر المتبع المؤلف ،  
وتقدر بعض التقارير عدد العاهرات فيها بسبعة آلاف من بين السكان الذين  
لم يكونوا يزيدون على مائة ألف (٥٠) . وها هو ذا مؤرخ كاثوليكي يقول :

لا غرابة وتلك حال أعلى طبقات رجال الدين أن تنتشر الرذيلة وينتشر  
الشدوذ باختلاف أنواعه بين طوائف الرهبان المنتظمة وبين القساوسة من غير  
الرهبان وان يزداد هذا الانتشار يوماً بعد يوم . قصارى القول أن الفضيلة  
قد فقدت معناها على وجه الأرض . . ولكن من الخطأ أن نزن أن فساد  
رجال الدين كان أسوأ في رومة منه في غيرها من المدن ، ذلك أن لدينا  
أدلة تثبتها الوثائق على فساد أخلاق القساوسة في كل بلد تقريباً من بلدان  
شبه الجزيرة الإيطالية . . فلا عجب ، كما يقول كاتب معاصر والحزن  
يملاً قلبه إذا كان نفوذ رجال الدين قد أخذ ينقص تدريجاً وإذا كان الناس  
لا يكادون يظهرون أى احترام مهمائل لرجال الدين في كثير من الأقطار  
ذلك ان الفساد قد انتشر بينهم إلى حد أصبحنا نسمع معه اقتراحات يديها  
البعض بالسماح للقساوسة بالزواج (١٥) .

ويجدر بنا أن نقول انصافاً لهؤلاء القساوسة غير المتعفين أن التسرى  
الشائع بينهم لم يكن يعد دعارة بل إنه يكاد يكون تمرداً عاماً على قانون  
العزوبة التي فرضها البابا جريجورى السابع (١٠٧٤) على رجال الدين  
وأرغمهم عليها إرغاماً . ولقد أخذ كهنة الكنيسة الرومانية يطالبون بأن

يسمح للقساوسة بالزواج شأنهم في ذلك شأن أمثالهم من كهنة الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية والروسية فقد ظلت هذه الكنيسة تسمح لقساوستها بالزواج بعد الانشقاق الذي حدث في عام ١٠٥٤ ، وإذ كان قانون الكنيسة الكاثوليكية لم يسمح لهم بهذا فقد لجأوا إلى عادة التسرى . وها هو ذا هاردون أسقف انجير يقول في تقرير له ( ١٤٢٨ ) ان رجال الدين في ابرشيته لم يكونوا يرون في اتخاذ الحظايا إثماً . وأنهم لم يحاولوا قط أن يخفوا ذلك عن أعين الناس (٥٢) . وكان في بومرانزا ١٥٠٠ حالة من هذا النوع يعترف الأهلون بأنها لا غبار عليها ، بل كانوا يشجعونها ، لأنهم يرونها وقاية لبناتهم وزوجاتهم ، وكان المؤلف المتواضع عليه في الاحتفالات العامة أن يعطى مكان الشرف للقساوسة وحظاياهم (٥٣) ، وحدث في شلزويج ان طرد أسقف من كرسيه لأنه حاول أن يحرم هذه العادة (٥٤) (١٤٩٩) . ولما عقد مجلس كنتستانس اقترح الكردينال زيرلا ان تعود الكنيسة فتسمح لرجال الدين بالزواج إذا لم يكن مستطاعاً منعهم من اتخاذ الحظايا ، وقال الإمبراطور سبسمند في رسالة له إلى مجلس بازل ( ١٤٣١ ) ان زواج رجال الدين سيصلح من أخلاق الناس بوجه عام (٥٥) ، ونقل المؤرخ بلاتينا أمين مكتبة الفاتيكان عن اينياس سلفيوس قوله ان هناك أسباباً قوية في صالح بقاء رجال الدين عزاباً ، ولكن هنا أسباباً أقوى منها في صالح زواجهم (٥٦) ، وجملة القول ان السجل الأخلاقي لرجال الدين قبل الإصلاح الديني يبدو خيراً مما هو إذا نظرنا إلى عادة اتخاذ الحظايا على أنها تمرد يغتفر لهم ، على سنة مرهقة لا تطبقها الطبيعة البشرية ، ولم تكن عند الحوارين الأولين ، ولا تجرى عليها الكنيسة الشرقية .

أما الشكوى التي أشعلت نار الإصلاح الديني في آخر الأمر فقد كانت هي بيع صكوك الغفران . وتفصيلها ان من حق رجال الدين ، السلطات التي نحوها المسيح فيما يبدو لبطرس ( انجيل متى ١٦ ، ١٩ ) والتي انحدرت

من بطرس إلى رجال الدين بمقتضى هذه السلطات أن يغفروا للتائب  
المعترف بذنوب خطاياها وما يترتب عليها من عقاب في نار جهنم ، ولكنهم  
لا يعفون أولئك المذنبين من التكفير عن خطاياهم أثناء حياتهم على ظهر  
الأرض . على أن الذين يستطيعون أن يثقوا بأنهم يموتون بعد أن يكفروا  
التكفير الواجب عن ذنوبهم كلها ليسوا إلا قلة صغيرة من الناس مهما  
اعترفوا بذنوبهم وطهرهم هذا الاعتراف ، إن الذين يستطيعون أن يثقوا  
بذلك هم قلة صغيرة من الناس ، أما الباقون فلا بد أن يكفروا عما بقي من  
ذنوبهم بأن يقدموا عدداً من السنين في المطهر ، الذى أوجده الإله الرحيم  
ليكون جحياً مؤقتاً لهؤلاء المذنبين . لكن ثمة طائفة كبيرة من الأولياء  
الصالحين قد كسبوا بفضل خشوعهم وتقواهم واستشهادهم في سبيل الدين  
من الفضائل ما نرى في أكبر الظن زيادته على ما كفروا به عن ذنوبهم .  
وقد خلف المسيح وراءه بموته قدراً لا يحصى من الفضائل ، وهذه الفضائل  
كما تقول الكنيسة ، يمكن أن تعد بمثابة كنز يستمد منه البابا ما يشاء لمحو  
جزءاً من الآثام التي ارتكبها الناس في الدنيا . ولم يكفروا عنها كل التكفير .  
وكانت الكفارة التي تضعها الكنيسة تتخذ في العادة صورة تكرار بعض  
الأدعية أو إخراج الصدقات أو الحج إلى بعض الأضرحة المقدسة ، أو  
الاشتراك في حرب صليبية ضد الأتراك أو غيرهم من « الكفرة » . أو التبرع  
بالمال أو العمل لبعض المشروعات الاجتماعية كتجفيف مستنقع ، أو إنشاء  
طريق ، أو بناء قنطرة ، أو مستشفى ، أو كنيسة . وكان استبدال غرامة  
مالية ( فدية ) بالعقاب البدني سنة مألوفة من عهد بعيد في المحاكم المدنية ،  
ومن ثم فإن تطبيق هذه الفكرة على صكوك الغفران لم يغضب الناس في  
بادئ الأمر . وكان التائب المعترف ، إذا أدى هذه الفدية أى إذا خرج  
عن بعض المال - لنفقات الكنيسة تسلم صك غفران جزئي أو كلي ، ولم يكن  
هذا الصك ليحيز له أن يرتكب ذنباً جديدة ، بل يمكنه من أن ينجو . ما ،

أو شهراً ، أو عاماً من عذاب المطهر ، أو أن يعنى من جميع المدة التي كان لا بد له أن يقضيها في عذاب المطهر عقاباً له على ذنوبه لولا هذا الصك ، ولم يكن الصك ليعنى من جريمة الإثم ، أما هذه الجريمة فقد كانت تعنى حين يغفر القس ذنب التائب النادم أثناء الاعتراف قبل الموت . فصلك الغفران ، والحالة هذه ، معناه أن تمحو الكنيسة بعض العقوبات الدنيوية ( أى غير الأبدية ) التي يتعرض لها صاحب الخطايا التي غفر أثمها أثناء عملية الكفارة .

وسرعان ما تبدل شأن هذه النظرية البارعة المعقدة بفضل سداجة الناس أو شراة الغافرين الذين عهد إليهم توزيع صكوك الغفران أو ادعوا لأنفسهم حق توزيعها . وإذا كان يسمح لهؤلاء الموزعين أن يحتفظوا لأنفسهم بجزء مما تدره من المال ، فقد أغفل بعضهم الإصرار على توبة من يتبعون الصكوك ، أو اعترفهم بذنوبهم ، أو صلواتهم ، وتركوا لهم حريتهم الكاملة في أن يفسروا الصكوك بأنها تعفيهم من التوبة ، ومن الاعتراف ، ومن الغفران على يد القساوسة ، وبأنهم يستطيعون الاعتماد كل الاعتماد تقريباً على ما يقدمون من المال . وقد وصل الأمر حداً جعل تومس جسكوني مدير جامعة اكسفورد يجار بالشكوى ويقول :

يقول المذنبون في هذه الأيام : « لست أبالي كم ارتكبت من الذنوب أمام الله لأن من السهل على أن أتخلص من كل ذنوبي ومما يترتب عليها من العقاب بالمغفرة وصكوك الغفران يمنحني إياها البابا الذي ابتاعها منه مستورة نظير أربع بنسات أو ست كاني اكسبها في لعبة تنس مع من في مقدرته أن يمنح هذا الغفران » . ذلك أن بائعي هذه الصكوك يطوفون بالبلاد ويفرقون خطابات بالمغفرة نظير بنسين تارة ونظير جرعة من الخمر أو الجعة تارة أخرى . . . بل إنهم يعطونها نظير استئجار عاهر أو نظير الحب الدنس (٧٥) . لقد ندد البابوات - بونيفاس التاسع في عام ١٣٩٢ ،

ومارتن الخامس في عام ١٤٢٠ وسكستس الرابع في عام ١٤٧٨ - أكثر من مرة بهذه المساوئ وهذا الخطأ في التفكير ولكن حاجتهم إلى المال كانت أشد من أن يستطيعوا معها السيطرة المحدية على هذه العادات السيئة . وكثيراً ما أصدروا القرارات لأسباب عدة يتحير الفكر فيها مع إيمان رجال العلم بهذه النظرية واتهموا الكنيسة بأنها تستغل سداجة الناس وآمالهم استغلالاً يجللها بالعار<sup>(٥٨)</sup> وكانت اللغة الرسمية في بعض هذه الحالات كالصكوك التي عرضها يوليوس الثاني في عام ١٥١٠ أوليو العاشر في عام (١٥١٣) تحمل من المعاني ما يمكن تفسيره تفسيراً مالياً خالصاً<sup>(٥٩)</sup> . وقد وصف أحد الرهبان الفرنسيين من ذوى المراتب العليا وهو غاضب أشد الغضب كيف كانت الصناديق توضع في كنائس ألمانيا كلها لتتلقى الأموال من الذين لم تمكنهم ظروفهم من الذهاب إلى رومة ليشهدوا الاحتفال الذي أقيم فيها عام ١٤٥٠ فاستطاعوا الآن أن تغفر لهم جميع ذنوبهم بالمال يلقونه في الصناديق ثم حذر الألمان قبل أن يحذرهم لوثر بنصف قرن فقال لهم ان صكوك الغفران وغيرها من الوسائل تستنزف مواردكم وتنقلها إلى رومة<sup>(٦٠)</sup> وحتى رجال الدين أنفسهم كانوا يشكون من أن صكوك الغفران كانت تقتنص الأموال إلى خزائن البابوات وكان خليقاً بهذه الأموال أن تستخدم في الأغراض الكنسية المحلية<sup>(٦١)</sup> ويلخص مؤرخ كاثوليكي هذا الموضوع كله بصراحة خليقة بالإعجاب فيقول :

ان المساوئ ذات الصلة بصكوك الغفران تنشأ كلها تقريباً من سبب واحد وهو أن المؤمنين بعد أن يشهدوا مراسم التكفير وهي الشرط المقرر المعترف به لنيل المغفرة ، يطلب إليهم أن يقدموا من المال ما يتناسب مع ثرائهم وبذلك أصبح المال الذي يؤدي للأعمال الخيرية وهو الذي يجب أن يكون من الأعمال النافلة التي لا يلزم بها إنسان ، أصبح هذا المال في بعض الحالات هو الشرط الأساسي لغفران الذنوب . . . وكثيراً ما أصبح

المال لا العمل الصالح هو الغاية المقصودة من الغفران ولسنا ننكر أن العبارات التي صيغت فيها قرارات البابوية ينحيل إلى الإنسان معها أنها لا تحيد مطلقاً عن عقائد الكنيسة وان الاعتراف والندم والأعمال الصالحة المنصوص عليها في هذه العقائد هي الشرط الأساسي لنيل المغفرة ، إلا أن الجانب المالي كان يبدو واضحاً في جميع الأحوال وكان للهبات المالية المقام الأول في هذا الأمر كله مما يسربل الكنيسة بالعار ويجعلها مضغة في الأفواه . اتخذت صكوك الغفران شيئاً فشيئاً صورة الصفقات المالية ، وأدى هذا إلى كثير من النزاع بين السلطات الزمنية التي كانت تتطلب على الدوام حظها من هذه الموارد (٦٢)

ولا يقل عن بيع صكوك الغفران دلالة على حب الكنيسة للمال قبولها أو طلبها المال أو الهبات أو الوصايا نظير تلاوة الأدعية والصلوات التي يقولون إنها تقصر المدة التي تقضيها روح الميت في المطهر لتعاقب عن ذنوبها وكان الصالحون الأتقياء من الناس يخصصون من أموالهم جزءاً كبيراً لهذا الغرض لتنجو به روح قريب لهم أو ميت فارق الحياة الدنيا أو ليقتصروا المدة هم أنفسهم في المطهر بعد موتهم أو يلغوها إلغاء تاماً . ولهذا أخذ الفقراء يشكون من أن عجزهم عن أداء الأموال نظير الأدعية والصلوات أو لابتياح صكوك الغفران يجعل الأثنياء على الأرض لا الوادعين هم الذين يرثون ملكوت السموات ، ولقد كان كولينس حصيماً حين امتدح المال لأن « من يمتلك المال يستطيع نقل الأرواح إلى الجنة » كما قال (٦٣) .

وازدادت الشكاوى من الكنيسة فبلغت ألفاً أو تزيد فقد غضب غير رجال الدين من إعفاء الكهنوت من الخضوع لقوانين الدولة ومن معاملة المحاكم الكنسية للمدنيين من رجال الدين باللين الذي يعرض الدولة لأشد الأخطار . وها هو ذا مجلس نورنبرج يعلن في عام ١٥٢٢ أن المدعى من غير رجال الدين لا يمكن أن ينال العدالة إذا كان المدعى عليه من رجال

الكنيسة وكان التقاضى أمام محكمة كنسية وقال منذراً إنه إذا لم يخضع رجال الدين للمحاكم الزمنية فسيثور الناس على الكنيسة في ألمانيا ثورة عاصفة<sup>(٦٤)</sup> ، وجدير بنا أن نقول إن هذه الثورة كانت قد قامت بالفعل قبل ذلك الوقت . وكان من الشكاوى الأخرى ابتعاد الدين عن الأخلاق الكريمة وتوكيد العقيدة والإيمان بدلا من توكيد المسلك الطيب ، ( وان كان المصلحون من هذه الناحية أشد إثمًا من الكنيسة نفسها ) وجعل الدين مقصوراً على المراسم والطقوس ، والتعطل العديم النفع والعقم المظنون بين الرهبان ، واستغلال سذاجة الشعب بعرض المخلفات الزائفة والمعجزات الكاذبة وسوء استخدام الحرمان الدينى واللعنة الدينية والرقابة التى يفرضها الكهنة على المطبوعات والتجاء محكمة التفتيش إلى أشد ضروب القسوة والتجسس على الناس وسوء استخدام الأموال التى جمعت لإعداد الحملات الصليبية على الأتراك وتوجيهها إلى أغراض أخرى ، ومطالبة الكهنة المنحطين إلى هذا الدرك الأسفل بأن يكون لهم وحدهم حق القيام بجميع المراسم الدينية وتقديم القرايين ما عدا عملية التعميد .

وقد تجمعت كل هذه العوامل السالفة الذكر فكانت سبباً فى ابتعاد أوربا عن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية فى بداية القرن السادس . ويقول باستور فى ذلك « ان احتقار غير رجال الدين وكراهيتهم للكهنة الفاسدين كان من أقوى العوامل فى مروق الكثيرين من الدين<sup>(٦٥)</sup> » وشكا أحد أساقفة لندن فى عام ١٥١٥ من أن الناس يميلون إلى الإلحاد ميلا بلغ من سوء العاقبة والانحطاط حدًا جعلهم . . ينددون بكل رجل من رجال الدين وان لم يكن يقل طهرًا وبراءة عن هايل «<sup>(٦٦)</sup> وها هو ذا ارازمس نفسه يقول ان لقب قس أو كاهن أو راهب أصبح يعد من أشد الإهانات<sup>(٦٧)</sup> وفى مدينة فيينا أصبح منصب القس فى العشرين سنة السابقة على الإصلاح لا يجد من يشغله مع أنه كان قبل ذلك الوقت خير ما يرغب فيه الأهلون<sup>(٦٨)</sup> .

ولهذا كله رفع الناس عقيرتهم في جميع أنحاء العالم المسيحي اللاتيني، مطالبين بإصلاح « الكنيسة إصلاحاً يشمل رأسها وأعضائها جميعاً ». وكان الإيطاليون المتحمسون الثائرون أمثال ارنلد البريشيائي ويواقيم الفلورى ، وسفرولا الفلورنسى قد هاجموا مساوى الكنيسة دون أن يخرجوا على المذهب الكاثوليكي ولكن اثنين منهم مع ذلك قد حرقوا وهم على قيد الحياة ، غير أن الكاثوليك الصالحين ظلوا يأملون أن يتم الإصلاح على يد أبناء الكنيسة المخلصين الموالين لها وكان الكتاب الإنسانيون أمثال أرازمس ، وكوليت ، ومور ، وبوديه ينحشون ما يحدثه الهجوم العلني على الكنيسة من اضطراب أمورها واختلال نظامها ، فقد كفاها ضعفاً أن ظلت الكنيسة اليونانية بعيدة عن الكنيسة الرومانية مصممة على هذا البعد كل التصميم ، وكان كل تمزق في « ثوب المسيح الذى لا درز فيه يهدد كيان العالم المسيحي نفسه بالفناء وكم من مرة حاولت الكنيسة مخلصاً في معظم الأحوال أن تطهر صفوفها ومحاكمها وأن تسلك في شئونها المالية مسلكاً يتفق مع الخلق الطيب ويسمو على أخلاق غير رجال الدين في تلك الأيام . ولطالما حاولت الأديرة أن تعود إلى قواعد نسكها القديم ولكن طبيعة الإنسان كانت تنقض كل ما يوضع من الدساتير وحاولت المجالس إصلاح الكنيسة ولكن البابوات عارضوها فأخفقت في أغراضها ، وحاول البابوات أنفسهم أن يقوموا بذلك الإصلاح ولكن الكرادلة ورجال الإدارة البابوية هزموا أولئك البابوات ولقد شكوا ليو العاشر نفسه في عام ١٥١٦ والحسرة تملأ قلبه من إخفاق هذه المحاولات ولسنا ننكر أن بعض المستنيرين من رجال الكنيسة أمثال نقولاس الكوزائى قد حققوا بعض الإصلاحات المحلية ، ولكن هذه الإصلاحات نفسها كانت قصيرة الأجل . وأثار التنديد بمعايب الكنيسة والتشجيع عليها من أعدائها ومحبيها على السواء ، ناثرة المدارس واضطربت له المنابر وفاضت به كتب

الأدب ، وأخذ يزداد يوماً بعد يوم وعماماً بعد عام ويستقر في ذاكرة  
الناس ويستثير غضبهم حتى قضى على ما كان للكنيسة في قلوب الناس  
من احترام وما كان باقياً من تقاليد واكتسحت أوروبا ثورة دينية عارمة  
كانت أوسع مدى وأعمل أثراً من جميع الانقلابات السياسية التي حدثت  
في أيامنا الحاضرة .